HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

رواية

حكيم خاطر

كليشيه وديستوبيا
أناس عاديّون

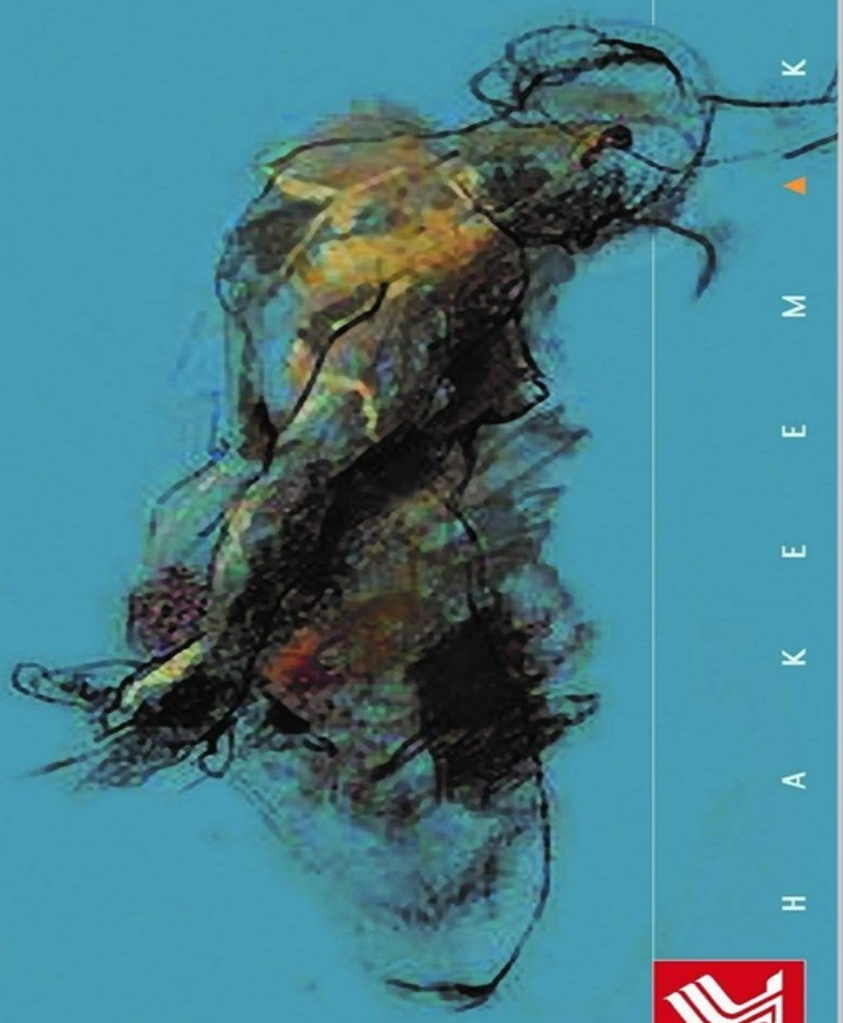

الأهلية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

روايات

حكيم خاطر

كليشيه وديستوبيا
أناس عاديّون

HAKEEM KHATER

رواية

كْلِيشِيه وَدِيسْتُوبْيَا
أُنَاسٌ عَادِيُّون

حكيم خاطر

برنامج الثقافة والفنون
مؤسسة عبد المحسن القطَّان
2018

شكر

شكراً لأمي أولاً، لما رأته مني وتحملته، خلال السنوات القليلة الماضية، شكراً لتحملها مزاجي المتعكر دائماً، صمتي وانعزالي، هي تستحق ولداً أكثرَ صلاحاً مني، وربما أكثر مرحاً، شكراً لكونها هي، أمي.

شكراً لمن قرأ لي، ذمني ونقدني ومدحني، شكراً عبد السلام، غادة، صابرين، إياد، فانتينا، مصعب، يونس، منذر، مهدي، ران، مجادة، خليل، ووجدي.

شكراً لمجادة، التي حاولت وربما نجحت، في إسقاط عقلي على الصورة، التي لا أعلم إن كانت ستصل إلى هذه الرواية أم لا، فإن كانت موجودة، فهذا انتصار لنا جميعاً، وآخر الأشياء الحرة، في الأدب والموسيقى والرسم والسينما، هذه هي النوافذ الأخيرة للحرية، أما إن لم تصل، فهذا هو الجزء التجاري، الذي يكرهه كل صانع، أن يفوز من يتحكم بكل شيء، نكتبه ونصوره ونلحنه ونرسمه.

"رصاصة واحدة كانت السبب في مقتل ملايين البشر في القرن العشرين، رصاصة واحدة كانت كفيلة بقلب موازيين قوى العالم وخارطة العالم الحديث، نحن لا نختار التغييرات، التغييرات تحدث، فقط تحدث".

المشهد الأول: مطرقة الله

مطرقة الله تضرب الأرض، ضوؤها الكهربائي المُتشعب يصيب ما طال من الفلزات، وصوتُ أمعاء السماء تتذيل الضوء في غضب واضطراب، ارتطام السائل على المعالم، على الإسفلت غير المستوي وفجواته السنتيمترية، على المتحطم بعضه كذلك إثر حفريات تمديد مصارف الصرف الصحي، يضرب الأرصفة وينساب بين شقوق الحجارة الحمراء الصغيرة في بعضها، والرمادية التي يغلب عليها السواد في أخرى.

يضرب رؤوس الصغار الذين نفذوا من مدرستهم باكراً، بعد خمسٍ من الحصص، لغياب **أستاذ اللغة الإنجليزية (المسحور)** ..

ففي تلك الكافتيريا يواعد **فتاة** تصغره ببضعة أعوام، مسحور هو بها، وتدعي هي أن سحر كلماته المتبجحة قد أزلها في مستنقع هواه، بالطبع **هو** لم يخبرها عن تِلك **التي تُحضِّر الفاصولياء** في المنزل، فتنقعهُ في الماء منذ ساعتين أو أكثر، تُزيل العكر، تغلي اللحم الدهني في الماء، بهاراته وفنونه المعتادة.

يشرب ذلك الذي لم يُحبه قط، ذلك الذي لم يجربه سوى مرتين أو ثلاث، لغلاء سعره النسبي مقارنةً بما يتلقاه ذو الأجر المحدود، فعند شح المال، تصبح الصفقات متعلقة بالكم أكثر منها بالنوع.

لم يخبرها عن سعر اليوم الواحد لقيادة تلك المركبة الفاخرة في الخارج، لم يخبرها أن ما تلقاه البارحة من الأجر سيُصرف ثلثه على هذا الغداء الذي لا يُشبع، وعلى البني ذي الرغوة، وعلى تذاكر الفيلم الذي لا يَفهم، والسيارة التي لا يملك.

هي لم تكن دراماتيكية إلى هذا الحد، كما أن ما تعرضه نادر للغاية في هذا السوق المغشوش، وإن كان التعبير رخيصاً ومقرفاً للغاية، بيد أن هذا كلامها الحرفي لصديقاتها، فتلك ليست أفخر سيارة تركبها، وهذا ليس أسخف غداء تأكله، وذلك لن يكون أول فيلم لا تفهمه.

مطرقة الله لا تزال تصيب الأرض، تصيب **ذلك الذي يكسوه ثوب الكتاب الآخر**، ما قرأه في شرح أقوال المعرفين وسمعه عن أفواه عبدة الحصائر المقدسة، في كونه من فضائل الخلق وطرق التقرب إلى ذاته المنعكسة فيما وراء جسده، فيرتدي غير العملي والزائف أيضاً في أصوليته الناشئة عن عوائد الصحراء ورؤية الراعي في ماشيته، بينما يقطر عرقه في مسوحه..

لحيتهُ حتى صدره، وعمامته تلف رأسه، وخطوته الضيقة إثر ذلك الثوب.

خلفه **امرأته** المسكينة ترتدي ما يغطيها هي ونصف زائد، فهذه أوامر بعلها كما اعتادَ أن يقول العرب، أن ترتدي ما يفيض عنها شيئاً وبعض الشيء، دوافع الحشمة الدوغماتية، بيد أنها تتعثر في كل عشر خطوات خطوة، وتزداد حدة ذلك التذررُ إثر ما لا تستطيع عيناها، فتلك النافذة المحاطة بالقماش الأسود من كل جانب، تلك التي ترى بها العالم مبتلة تماماً تنسدل على عينيها إثر ما زاد من القماش وما أصابه من رطب، ترفع ثوبها الثقيلة أطرافه إثر تشربه الماء.

خلف كواليس العمى والغثيان والبلل يتعثر الاتزان، وتتهاوى الأذرع المبتورة بحثاً عن حبل، عن يد، وقد كانت اليد هناك، رفُعت الستارة حتى تَسرب الضوء وأشعة المطر الحادة، لكن سرعان ما أن سُحبت اليد في أحداث التعثر تلك، تنزلُ أرضاً..

- لا يجوز ذلك أمام الناس

يقول لها ..

- استري نفسك واستمري في التحرك..

يسبقها إلى ما يقيهِ من الله، وتتبعثر هي هائمة في عماها وثقل خطاها حتى تصله أخيراً، كانت مبتلة تماماً، غير أن المطر هو نوع آخر من العري.

كان القماش ملتصقاً في كل ثناياها؛ وجهها النحيل، رقبتها الطويلة، صدرها وثدييها المدورين، خصرها المتناسق، ردفيها وتقوساتهما، ما بين فخديها، وأرجلها الطويلة تناسقاً بما تحمله فوق السرة، من كان يعتقد أن ذلك الذي يغطيك بالكامل هو نفسه الذي يعريك أيضاً، بيد أن هذه ليست مجرد ملاحظة موضوعية، بل تساؤل قد اجتاح وعي **ذي العمامة**، وجوهرية لا يستطيع دماغه معالجتها، تساؤل ذو أبعاد خشي الخوض فيها، تساؤل قد قمعه بعد ثانيتين أو ثانية..

صفع وجهها بما لا ذنب لها فيه، غطا جسدها بجسده، يعطيها شيئاً من الدفء، على الأقل هذا ما شعرت به، دفء مبتذل، دفء كاذب، أما هو فما يعتقد به قد زُعزِع، وشرفه قد هُدد، وما يقيه من الله قد زال.

مطرقة الله تصيب تلك **الجميلة واللطيفة للغاية**، تصيب دمعها الذي سال، ومخاطها اللزج، المطر يخفي حزنها عن العوام، تحمل هاتفها المبتل، غير آبهة بعطبه المحتمل إثر ذلك الغضب السماوي، تدق الرقم ذاته، ترفع الهاتف المحمول إلى أذنها، رنة فرنتين فصمت، العملية ذاتها تتكرر نحو عشرين مرة، بيد أنه لا يجيب.

بيدق السماء لا يجيب منذ أن تسلل من ذلك السرير الدامي، عارياً تماماً، يرتدي ملابسه تتابعاً الداخلي منها فالخارجي، ومشيته الخفيضة، يمر من المطبخ ذي الأواني المرتبة، ومن الممر ذي الصور التي تسكنها تلك **التي تركها في ذلك السرير الدامي**، من غرفة المعيشة والمقاعد الخشبية والتلفاز القديم، ومن ذلك الباب الخشبي الأبيض، يتسلل خارجاً.

تستيقظ **اللطيفة للغاية** بعد ذلك الانسلال الجبان بساعتين أو أكثر، لا تجد ذلك الذي أدماها، بيد أن ذلك الابتذال الرومانسي يستهويها كما الكثير من أقرانها، تتخيله داخلاً من ذلك الباب الأبيض غارقاً حتى أخمص قدميه، حاملاً كوبي القهوة الدافئين، وفطائر الجبن الساخن من ذلك المخبز القريب، يسألها الدفء، لتحتضنه تحت هذا الغطاء الناعم وجسدها العاري، تمنحه ما لديها من الدفء، وتزيل عنه ما ابتل من ملابسه، يتقاسم كل منهما فطيرته رغم أنها من النوع نفسه، تخيلها وابتلالها الشبقي ذاك استمر نحو ساعة، بيد أن أحداً لم يدخل من ذلك الباب.

ترتدي الزي نفسه الذي ارتدته خلال مناوبة البارحة، وتستر عريها عن عيني الله بذلك **المتقاطع حول رقبتها**، وعوارض الحقيقة تبدأ بالظهور على وجهها، حقيبة يدها وهاتفها النقال، ومن الباب الأبيض ذاته تخرج.

مطرقة الله تصيب ذلك الذي **بدأت علامات الشيب تغزو رأسه**، يحمل حقيبته ذات الجلد الزائف، وبدلته ذات التقليد الدقيق لإحدى الماركات الفرنسية الشهيرة، وعطره الذي يدوم ساعتين على الأكثر، الذي اشتراه من أحد الباعة المتجولين، ومحفظته التي تحوي ما يقاربها قيمة رغم تقليدها الواضح لمن لاحظ استبدال الحرف المفخّم عن الأصلية بذلك المرقق على النسخة، بيد أن أحداً لا يلاحظ هذه التفاصيل بمقدار الصورة العامة، ومن ذلك الخِداع الذي مارسه البائع المتجول المشبوه.

يداه خاليتان من أي بوادر استقرار، أما منيه فقد لطخ عدداً من أسرة الليالي العابرة.

يحتمي من البلل بحقيبته المزيفة تلك، وبضعة شبان جامحين يركبون تلك السيارة ذات الأحصنة المئوية على أقل تقدير، يستمعون إلى الموسيقى الصاخبة، والدخان الذي يخرج من الشقوق الضيقة للنوافذ، بحيرة في عُرض الشارع، يبدو أن مهندس البلدية لا يجيد عمله كما يجب، بلا مكابح يرشقون ثلثي ما تحمله تلك البحيرة في أحشائها يمنة ويسرة، هو يسب بما يألفه لسانه، بيد أنه يسارع في الصمت خشية أن يسمعه أحدٌ نظراً لهيئته الموقرة، إنما في الحقيقة كان يخشى أن يسمعه الشبان المسرعون.

مطرقة الله تصيب تلك **التي تخرج من مؤسسات العقم**، أو هكذا كانت تصف الجامعات والمدارس، تجر طموحاتها شبه المتكسرة، وكتبها التي تنزف، تلك الكتب الممتلئة بالشمع الأحمر وما حظر الخوض فيه، حاملةً شعاراتها المعارضة للدولة، والوشاح الذي يعبر عما ضاع، أو على الأقل هكذا تقول.

تستقبل المطر بكل ما فيها، ترفع وجهها الخالي من المساحيق نحو السماء، وتبتسم بتلك العفوية المقموعة، ذلك التصرف تعتبره تلك التي تمسك بيد حبيبها غير حضاري وسخيف، تخفض رأسها، لتراقب العوام وتوقف مركبات الأجرة لمن ترتدي الكعب الأعلى والتنورة الأقصر، وتهافت الشبان على الجلوس بجانب الفتاة الأكثر امتلاءً، وصراخ السائقين الذي يُعتبر شهامة كما يقولون، بيد أن مرايا السيارات الأمامية تخبر قصة أخرى.

قد طال وقوفها تحت المطر، إلى الحد الذي لم يعد مسلياً، بل ممرض، تقبض ذراعيها والمعطف الأسود، ومركبات الأجرة تمر من أمامها الواحدة تلو الأخرى، تلعن سروال الجينز الذي ترتديه، وتلك الكتب الكائنة على رفوف الحائط في غرفتها، الكتب التي سلبت ثمن أنوثتها، تلعن تلك العاطفة التي حُرِمَت، تلعنُ نصف حبٍ.

تقي نفسها تحت مظلة ذلك العجوز الذي يسترزق من القهوة والشاي، وفمها يتمتم اللعن، وعيناها تستثيران الدمع الممسوح تباعاً، يعطيها كأساً من الشاي، ويربت على كتفها..

- على حسابي.

مطرقة الله تضرب الغطاء الأمامي لتلك السيارة التي يرجع أصلها إلى بداية ثمانينيات القرن الماضي، تقف أمام العامود الفولاذي ذي العيون الثلاث، وعيناه الحمراوان تتوهجان، وذلك الشرطي يحمل أوراق تمويل الدولة.

خلف المقود يجلس شاب على مشارف الكهولة والخمول العمري، وباقة الزهور المبتلة بجانبه، ينتظر الإفراج الأخضر، يسرح في فكره إلى ذلك الماضي، ونظره إلى السماء وتساؤله حول ماهية الأشياء، عندما كان لا شيء يحجره عن **الإبحار** في ظلمات نفسه، ودنياه وآخرته المحتملة، عندما كان يستحوذ على نفسه وما فيها، لكن إبحاره ما عاد يغادر مرافئ اللاشيء، فتلك التي في شهرها السابع، حلّقت بروحه إلى النعيم، ودفنت إنسانيته فيها، في قلبها، لا أحد يمانع مثل ذلك العمى.

المحركات الحديثة والمتعبة تزمجر عن أسطواناتها، الكثيرة في بعضها، والمتواضعة في أخرى، ومحرك سيارة **ذلك الذي يخشى الإبحار** كذلك، ذلك السجان الفولاذي يمارس إغراءه الأصفر، سيفرج عن محتجزيه قريباً، التوق إلى الحرية يستحوذ على أرجل أولئك السجناء وأدواتهم البترولية، أما تلك التي جاوز عمرها الثلاثين تسعل متعبة، تحاول أن تجاري أرجل ذلك الذي يخشى الإبحار، حتى يغمى عليها، الصرخات تطول عِرض ذلك الشاب وهو يلوح من نافذته أسفاً،

يمر وحش تلو الآخر، وكل منهم يحمل انتهاكاً فريداً، أما الشرطي فيستغل فرصته لتمويل الدولة وتقبيل مؤخرات رؤسائه..
يشعر **الشاب** في قلبه، أن الخير لا يزال موجوداً، فلا تزال هنالك حفنة من اللطفاء أو بالأحرى المزعوجين من توقف السير وسعيهم نحو حرياتهم، إلى جانب الطريق تستقر تلك المغمى عليها، يرن هاتفه..
تلك التي في شهرها السابع قد سال ماؤها، يسرة ويمنة تضيع عيناه، يترك باقة الزهور، وإلى أقرب وحش بترولي أصفر يتوجه إلى تلك التي بدأت انقباضاتها.

المشهد الثاني: إنسان

"ابقَ مكانك سأعود حالاً" يقول **(الذي يخشى الإبحار)** لسائق مركبة الأجرة، يصعد أدراج هذه العمارة النائية عن معالم المدينة الفوضوية، إلى ذلك الصراخ الخافت، حيث بقع المخاض، والألم المهوّل.

كانت تصارع حِشمتها ولكمات ابنتهما، بيد أن هذا ليس وقت الحشمة، يحملها على ذراعيه، وثوبها المبتل، وشعرها الذي لم تستره، هو لم يهتم يوماً بهيئتها، فقد وعدها بالحب بكل أشكالها وأحوالها.

صرخات النسوة ودعواتهن المبتذلة، وذكورهن يصرخون الشهامة، يربتون على كتفه ووعودهم اللقيطة التي لا يوفون.

يبدو أن من يعيش في هذا البلد الملعون عليه أن يتبنى تلك المبادئ المنافقة، أن يُظهر الإخاء في تلك المواقف التي تُعمي وعي ذلك الآخر، وتسلبه فرصته الثمينة في كشف أكاذيب الرجال ذي الفانيلات البيضاء الملطخة بصلصة لحم الضأن المقلي.

(الأساطير لا تموت).

- أين سيارتنا..؟

تقول **زوجة ذلك الذي يخشى الإبحار** ..

يقول لها..

- لاحقاً..

ينظر نحو سائق التاكسي..

- أرجوك أسرع..

كان قد وصل مؤشر السرعة إلى حدود المئة والعشرين كيلومتراً في الساعة، وهذه سرعة عالية نسبياً في ذلك النوع من الشوارع المشوهة، سائق التاكسي يصرخ ويلعن كل من يجده أمامه..

- ابتعد أيها الأحمق**!**

مستطرفاً اللعن وقذف عورات أمهات السائقين، يعلق في أزمة مرور إثر تلك الحفريات اللعينة، طريق ذو اتجاه واحد أصبح ممراً للسيارات من كلا الاتجاهين.

يحتضن **(الذي يخشى الإبحار)** زوجته التي أعياها الألم، واستلبس لسانها الهذيان.

ينظر**(السائق)** من مرآته الأمامية، يعض على شفته السفلى ...

يدير المقود إلى أقصى يمينه، وعلى الرصيف ثم الطريق الترابي غير الرسمي، فلا وقت لأخذ الحيطة، يتمرس في المناورات، يحاول ترويض ارتجاج المركبة حتى لا تتفاقم حالة امرأة ذلك الذي أحب.

تنظرُ من النافذة، حيث ذراعا حبيبها تلفاها، ورجلا ابنتها تمزقان رحمها شيئاً فشيئاً، لماذا هذا التوق للخروج إلى هذا العالم البائس**!**

تعدُ الأشجار التي يمرون بها، هذا ما شغل بالها، عد الأشجار**!** تتوه بعد المئة وبضع، تعاود مجدداً العد من البداية، حيث تزداد آلامها كلما ازداد العد شجرة، حتى يغشى عليها تماماً.

ينادي اسمها..

- **دلال.. دلال..**

يُملس شعرها، يصفع وجهها صفعات خفيفة، يعطيه السائق زجاجة من الماء، يبلل يده، وبرفق يمررها على وجهها النحيل، وجبينها المتعرق، نفسها يتقطع، وأنينها يخبو في حدته.
يصلون مدخل الطوارئ، ينزل سائق مركبة الأجرة، يصرخ على الممرضات، السرير ذو العجلات يصل بعد ثوانٍ، يُساعده على حمل امرأته، يضع الزوج يده على محفظته، يمسك السائق رُسغه..

- اذهب مع امرأتك..

يدير محرك سيارته المتعبة بعد هذه المغامرة، الزوج يردد الشكر والمباركة.

المشهد الثالث: عندما قُطعت ألسنة الآلهة

على الطرف الآخر من الطريق، بجانب مدخل إحدى العمارات التي تضم بعضاً من أضخم الشركات على مستوى الدولة، مقابل المشفى، يصدح عزف كمان رخيص، معزوفة صعبة للغاية ومعقدة للغاية، بيد أن ذلك **الشاب** موهوب لدرجة العبقرية، معزوفة قد استوحاها الأوكراني **ألكسي فويتينكو** ((Alexey Voytenko من كتاب **"موسيقى إريك زان "** (*The Music of Erich Zann*) للكاتب الراحل "إتش. بي. لوفكرافت" (H.P.Lovecraft) .

كان يرى ذلك الشاب في **فويتينكو** إلهامه، بل دوافعه كلها، أن الموسيقى ستوصله يوماً ما إلى ما يريد، كان يرضى بالقطع النقدية القليلة التي تلقى في بيت كمانِه، وحتى لو لم يجنِ شيئاً كان يرضى، فهو يخلق الحياة في موسيقاه.

الأوتار ترتخي وتضعف شيئاً فشيئاً في مواضع الغضب والحزن للمعزوفة، وكذلك القوس يتحرش بتلك الأوتار بغضبه واحتكاكاته السريعة اللاسعة.

(غريب كيف أنه رغم اتساع معجم العربية، وقوة اللغة التعبيرية لا نجد لقوس الكمان اسماً سوى أن يكون قوساً، ربما لأنه أجنبي المنشأ، فتجده في الفرنسية يحمل اسم (Archet) أي **"انحناء"** في الترجمة المباشرة، أداة اسمها صفة!).

أحياناً وفي أوج عماه، كانت تقف فتاة ما، معجبة بعزفه وربما به نفسه، تضع أحياناً ثمن شطيرتها، وأحياناً أخرى يغلبها الجوع فلا تفعل، كانت تقف في ذلك اليوم، حيث آخر ضربات مطرقة الله، تقي نفسها من البلل وتنتظر سيارة ما تقلها، هكذا تبدو لمن شاهدها من العامة، أما هو فقد كان غارقاً في عماه ذلك، حيث الموسيقى والأنفاس السريعة وحركات رسغه الخاطفة.

فيما كانت تشاهده قد صعقتها الحقيقة؛ حقيقة أن الموسيقى لا تملأ البطون، هذه المرة احتفظت بنقودها، رغم أنها لم تكن جائعة، قد بدأت في السير حتى اختفت خلف ذلك المبنى.

في الطابق الثاني لذلك المبنى، يُعقد الاجتماع المعتاد من كل أسبوع، يتناول حبتي أسبرين، يستل سماعة الهاتف ..

- أخرسوا هذا الإزعاج..

يقول لرجلي الأمن..

يختطفونه من عماه، حيث اندثرت على الأرض شظايا الخشب الصغيرة، ولكمات ذلك الذي لم تعتد رسغاه سوى الرفق والحدة لا القوة، ليندثر هو كذلك ككمانه مع بضع كدمات حول عينه وفكه..

- انصرف من هنا..

يحمل ما استطاع من الشظايا، وشفته المجروحة تنزف وتُمسح تباعاً، يمشي مشيته المعتادة، بضعة كيلومترات، حتى يصل حيث ذلك المتجر الذي يأخذ منه المعكرونة الرخيصة ولا شيء آخر، لم يجنِ اليوم شيئاً سوى ثمن المعكرونة، يصعد إلى تلك العلية حيث الغرفة الرطبة جدرانها، ونوافذها المغطاة بورق (النايلون) الذي لا يقي لسعة البرد، حيث يسخن ماء عشائه ويرطب جروحه وكدماته.

صراخه يعلو، وأثاث الغرفة البسيط ينقلب ويتكسر، يستمر الأمر لثوانٍ فقط، حتى يُفرغ قهره، يسند ظهره على الجدار وينزلق ممسكاً بجفنيه وبزاقه، هناك حيث سُخرية أهله من حلمه، وحاله

التي أفلتت الحضيض منذ سويعات قليلة فقط، هناك حيث الهزيمة والقهر والخذلان والخيبة، هناك حيث الشظايا الخشبية المتناثرة، هناك حيث يمسك أكثرها حدة، هناك حيث قطع رسغيه، هناك حيث الضحك الهستيري والبزاق الذي يعود على وجهه، هناك حيث خفتت الهستيريا وحل العمى.

المشهد الرابع: خطأ طبي!

تُحضِّر الممرضات **(دلال)** للعملية، حيث الرداء الأخضر الخفيف وواقي الرأس القطني، يبدأْنَ الفحوصات الدورية، نبضات قلب الجنين والأم، ودرجة الحرارة، وقياس ضغط الدم.

تلك التي **تحمل حول رقبتها ذلك المتقاطع** تفحص توسعات رحمها وانقباضاتها، حيث تفحص بأصابعها موضع الجنين، تشير إلى الطبيب المناوب، **ذي الصورة المزيفة** ، إلى أن الجنين سيولد من أرجله أولاً، وعلى ذلك ضرورة العملية القيصرية.

يرفض رأيها ويأمر بالولادة الطبيعية، التي تجرى عادةً بإشراف الطبيب لا بتدخله المباشر.

تمسك تلك **اللطيفة للغاية** يد **(دلال)** حيث نظرات زوجها ولعثمة لسانه تسألان الممرضة العناية والمراعاة.

تُمسك يدها تلك التي تحسدها، ربما على الحب، أو حتى على الصدق دون خداع أو انسلال جبان أو هروب، تخبره **(ذلك الذي يخشى الإبحار)** أنها ستقوم بكل ما باستطاعتها من أجلها.

يشير ملف **(دلال)** الطبي إلى تناولها عدداً من الأدوية منها، مدرات البول، والأدوية الموسعة للأوعية الدموية، والأدوية المضادة للتخثر، ومن ذلك ما يشير إلى أنها تحمل مرضاً في القلب.

بيد أن **ذلك ما غفل عنه الطبيب،** أو بالأحرى ما تقاعس عن التحري عنه، حيث إنه لم يكن هو الطبيب المسؤول والمتابع لحالة **(دلال)** ، ومن ذلك حالة ولادتها المبكرة والمفاجئة.

تدخل **(دلال)** غرفة العمليات، حيث صرخات طلقها، وارتباك **الممرضة اللطيفة** وزميلاتها، والقهوة الساخنة التي تُجلب إلى مكتب **الطبيب، ذي القيمة المجتمعية الرفيعة** ،.. سويعات تمر، القهوة تبرد، وأصوات الطلق تخفت.

في داخل الرحم يلتف الحبل السري حول عنق ذلك الجنين، حيث يصارع نقص الأكسجين وإقامته غير المرحب بها بعد الآن.

تطلب **الممرضة اللطيفة** من إحدى زميلاتها أن تأتي **بالطبيب** ..

يرفع **(ذو الصورة المزيفة)** كوب القهوة ببطء، يرتشف آخر رشفة منه وقد وصل الحثل شفتيه أخيراً، يقول في سماعة الهاتف..

- قولي لي إذاً أين أنتِ الآن؟
- على السرير.
- ما الذي ترتدينهُ؟

في ضحكة لطيفة ...

- ما الذي تريدني أن أرتديه؟
- فستانٌ شفاف قصير.
- ماذا أيضاً؟
- أن تخلعيه.
- أخرج رمحك، ودع صوتي يداعبهُ.
- أخرجته.
- أنا عاريةٌ الآن، أداعب نفسي.
- داعبيني، دعيني آتي.

تئن بقوة، يداعب نفسه بقوة، تقول..
- تريدني، ألعقك، أداعبك، فمي، وصوتي، داخلي.
- أكثر.. من أي شيء.
- الأمر، سهل.
- إنني أحاول.
- حاول أكثر، استمع إلى صوتي، سائلي، أنت الطبيب، الجميع يحبك، تخيلني أمامك، على مكتبك عارية، أداعبك.
- بلى .. الجميعُ، يحبني، ستكونين ممرضة رائعة، ملاكاً
- مَلاكُ رمحكَ، أداعبك، تدخلني، متى شئت..
- يا إلهي إنني أعرقُ، كالوحش.
- أنظر في صورتي، أنظر في داخلي، وأفضي بما فيكَ، تخيل صدري.. وجهي أمامك.
كانا على مشارف اللزوجة، تطرق ممرضةٌ الباب..
- **دكتور** الحالة تأزمت..
يرتجف، ثم يلوث نفسه، يقع الهاتف، يصرخ ..
- ما الأمر؟!
- المريضة دكتور، إن الحالة تتأزم أكثر.
يُهذب هندامه، ينظفُ قميصه بمنديل، ثم رمحهُ، يرتدي معطفه الأبيض. يمشي بتلك البلادة المُستحقرة، يشير إلى استخدام الإبر الموسعة لعنق الرحم وجرح طرفي لشق العجان.
تخرج **الطفلةُ** أخيراً إلى هذا العالم، وجهها الشاحب المُزرق، إثر نقص الأكسجين، يُسرَع بها إلى الحاضنة بُعيد قص مشنقتها.
تخرج **اللطيفة للغاية** بخطاها المتعبة وإحباطها الخفي واستحقارها **للطبيب** ونفسها حتى، نحو ذلك **الذي أصبح يخشى الغرق..**
- كيف حالها؟
يسألها..
- **فتاة** جميلة للغاية؟
تستطرد قائلة..
- كانت هنالك بعض التعقيدات، ولا أخفي عليك أن الرضيع في حالة حرجة، غير أن الطبيبة المسؤولة ستزودك بالتشخيص السليم، ريثما تنتهي من تفحص إشارات الرضيع الحيوية..
يرد بلهفة..
- **(دلال)** كيف حالها؟ هل هي بخير؟ بإمكاني أن أراها؟ مستيقظة؟
ترتبك **الممرضة** ، يهُز كتفيها متضرعاً..
- زوجتك دخلت في غيبوبة، يبدو أن حالتها المرضية قد تفاقمت إثر آلام الولادة، ولقد حصل نزيفٌ أيضاً استطعنا السيطرة عليه، سنحتاج إلى عدد من وحدات الدم، لقد تم نقلها إلى غرفة الطوارئ، وأوصلناها بالأكسجين، هذا كل ما نستطيع فعله من أجلها حتى هذه الساعة.
يخفض يديه عن كتفيها حيث يكاد يقع من إعيائه، تُمسك ذراعه وتسوقه نحو المقاعد، تسأل زميلتها المارة عن كوب ماء..

- عليك أن تكون قوياً من أجل فتاتيك، إذا انهرت أنت فلن يتبقى لهما أحد، قد أوصتني **(دلال)** خلال طلقها أن أطلب منك أن تأكل جيداً، إن لم تأكل ولم تتماسك فلن أدعك تدخل لتراها.

يغطي وجهه براحتي كفيه ويبدأ نحيبه..

- ليس لدي غيرها، أرجوك يا الله..

تبتسم **الممرضة** ، وتحسد تلك الهائمة في خيال عقلها..

تقول في نفسها..

- من ذلك الذي سيتضرع لوهمه من أجلي؟ من ذلك الذي سيحزن علي إذا ما تهت في أحاجي عقلي؟؟

المشهد الخامس: الخطيئة الثالثة والشجرة المقدسة

كانت تنزف بشدة، من القطع في عنقها، كانت تبكي، وتنفث الدم من فمها، أصوات كثيرة تصرخ في رعب، وتظهر الفتاة الجميلة بصورتها عندما كانت صغيرة، كانت الفتاة الجميلة تحتضنها وتبكي، إنها خطيئتها، وندمها الأخير، تتذكر المنحورة صورتها القديمة، عندما نزفت أول مرة..

- اقض عليه، واذهب في سائِلُكُ إلى شجرة الأصل.

يقول الأب، بينما يطرح الابن وجه أخيه في الوحل الأول، في يده الأخرى يحمل حجر الإدماءِ الأول، ينظر في عيني أخيه وكان فيها الرعب الأول، غير رعب **الماوراء** الأخير.

يرفع الخطيئة الثانية عالياً، ثم تهوي يده ويُقتل الأخ الأول، تتراشق الدماء على وجهه، ينظر إلى الاثنين وغنيمته، ثم يلقي حجر الدمي الأول بعيداً وينهض عن الموت الأول. تقول الأم:

- لقد أُخترت من أجل الخلق الثاني، فلا ضلعٌ آخر يُكسر، فذلك كان **الماوراء** في خلقه الأخير.

يقول الأب:

- اذهب إلى ما وراء شجرة الأصل، أنت وغنيمتك، انكحها واجعل من ورق الشجرة غطاء عانتك، إنه عصر **الإنسان الأسفل..**

الغنيمة تسبقه إلى ما وراء شجرة الأصل، تنبسط على وجه التراب الأول، تفرد أذرعها، تباعد ما بين رجليها.

يُقدّم إليها ببطء، وينظر إليها، المرأة الكاملة، يدخل أُخته حتى سال ماؤهُ، ينظر إليها مرة أخرى، وقد فَتحت عيناها.

وقفت، ثم التفتت نحو شجرة الأصل، قطفت منها ورقة، ثم دنت نحو الأخ، نزلت على ركبتيها وغطت عانته، التفتت إليه مرة ثانية، وقد كانت عيناها داميتين، قالت:

- امضِ والأفعى بجوارك، تزحف، دعها بلا أقدام، فجريها خطيئة، ودع حفيفها حفيفاً، فحفيفها كلامٌ لمن أغرته الكلمات، وكلامها خطيئة، دعهم والأخوات، ينكحونهن، فنكاحهن ضرورة، حتى تمضي أصولهم بلا مرجع، فيغترب النكاح، ونكاح الأخوات حينها خطيئة، دعهم يسطرون، أسطورة النكاح وشجرة الأصل، حتى ثالثٌ مدعوم، كاملٌ في زعزعة، حينها، سطورهم خطيئة.

ثم مضى هو والاثنان، وتُركت الخطيئة الثالثة حيث الشجرة، التفتت نحوها، تتضخم وتدمي، حتى انفجرت، في بركة من الدماء، تسقي شجرة الأصل.

المشهد السادس: صفيرٌ أحمر

يحمل **(ذلك الذي يخشى الغرق)** جوعه وغثيانه وقلقه إلى حيث ذلك المصعد المشبوه واهتزازاته العنيفة، كرسي ذو عجلات يسكنه عجوز قد مُد من عانته أنبوب بول في آخره كيس، وأنبوب آخر ينقل القيح الدامي إلى كيس آخر، بوادر عملية تَقتَرِن بالأمعاء، تجره امرأته، بالأحرى تسند نفسها وجذعها التِّعِب إلى ذراعي الكرسي، يسند كل منهما الآخر، وكأنهما بكتيريا تكافلية.

ينظر إليهما ذلك الذي يخشى الإبحار، ولعله يحسد ما خرج من رحم تلك العجوز منذ سنوات عديدة على الأرجح، ولعله بذلك يتذكر المشاجرات العديدة لوالديه التي طالت أغلب سنين زواجهما، يذكر سباب أمه وصراخها، وصفعات أبوه وجبنه، يذكر أنه لم يحترم ذلك الرجل قط، رغم أنه أحبه، ففعل الكره لم يكن سهلاً عليه قط.

يدخل **رجل** آخر، مثقلٌ بما في يده من أوراق خفيفة، التأمين لا يغطي الحالة بالكامل، وأسعار الدواء الباهظة تجعل يده تنقبض على الأوراق فيطويها بأنماطٍ عشوائية، يخشى تمزقها فيهدأ مجدداً، يشعر بأنه فاشل كما كانوا يُخبرونه، فاشل كابن، وفاشل كزوج، والآن فاشل كأب، ولعل كلمات **المُحاسبة** المنمقة أحبطته:

- أعتذر أخي الكريم، لا يُمكننا أن نُدخله غرفة العمليات قبل سداد المبلغ، هذه سياسة المُستشفى.

يرد قائلاً:

- ما الذي تعنونه بذلك؟ هل ستدعونه يموت؟ ألا ترين أنني أحمل تأميناً شاملاً.

بابتسامتها الضرورية:

- بلى أخي الكريم، أرى ذلك، لكن مثل تلك العمليات المعقدة، التأمين لا يُغطي سوى 75%، وما تبقى هو أجرة الطبيب المختص من الخارج، وغيرها من المعدات الضرورية.

للمصادفة كل من في المصعد يدخل كافتيريا المستشفى، سعر الشطائر ضعف سعرها في الأسواق، بيد أن المشافي عادةً ما تُقام على حدود المدينة المعنية، وإن وجُدت المَحال حولها، فهي كذلك تتبع التسعيرة نفسها المخيفة.

يَستقر ذلك **الذي أحب** على (الفلافل)، ورغم وصفها كوجبة شعبية، فإن سِعرها هاهنا يُوحي بكونها طعام طبقة اجتماعية نادرة في هذه البلاد الفقيرة عامة، ولا بأس بذلك السعر إن أراد أن يرى **(دلال)** بهيئة غير مُصفرة.

أما **العجوز وزوجته** فيستقران على كوبين من الشاي الساخنين، فتستلهما العجوز لتجد زوجها قد غط في قيلولة قصيرة أو ربما طويلة.

يقال إن الإنسان إذا ما صار ينام أغلب يومه قد اقترب أجله، حتى ينام في يوم من الأيام فلا ينام أغلبه، بل ينام أبداً.

وجدت تلك العجوز نفسها تطلب من صاحب الكافتيريا أن يُعيد لها سعر هذا الكوب الزائد، ورغم أن الأمر يبدو محرجاً لنا نحن حديثي العمر ومزيفي التكلف بما يُعرف في عرفنا الحديث بالـ(إتيكيت)، فإنها -أي تلك العجوز- تَستخدم منطقاً سليماً، ما حاجتها إلى شيء لن تستهلكه، بالأحرى لمَ عليها دفع ثمن شيء لم تَعد بحاجته، وعلينا كذلك أن نُدرك صحة موقفها، فورقة الشاي لم تبتل بعد، فما تحصل عليه حال شرائك كوب الشاي من تلك الأماكن المتكلفة، هو كوب

كرتوني، وورقة شاي، وملعقة بلاستيكية، وكيسا سكر مُغلقان، وفيما بَعد ذلك عليك أن تَخدم نفسك بنفسك، أن تَستخدم السَخّان في زاوية الرواق، وهذا وحده تحدٍّ لمن أتى من زمن غابر كتلك العجوز، إلى أنه قد رفض إرجاع المال، واكتفى بتظاهره بالانشغال بشؤون طلبات الزبائن الآخرين، وبذلك تضع العجوز صمتها وأغراض كوب الشاي العجيب في حقيبتها، وتكتفي بشرب كوبها إلى حين استيقاظ رفيقها الراحل عاجلاً أو أجلاً رغم رجاحة الأولى.

يستل **الرجل** هاتفه ريثما تجهز القهوة، بأنامله المترددة يطلب رقماً كان يخشى في يوم من الأيام أن يحتاجه، رنتان وثلاث وأربع قبل أن يصدر صوت الطرف الآخر، وكان واضحاً من الصوت سمنة تشبه سمنة أولئك الذين في **"جحيم دانتي".**

بصوت متردد:

- أ.. ألو.. مرح.. مرحباً..

يرد **السمين** قائلاً:

- من هذا؟

يُصرح عن اسمه وكيفية حصوله على رقمه..

- آه تذكرتك..

يُصرح عن غايته..

- متى تحتاج المبلغ؟
- "الآن.. اليوم.. إن أمكن..
- سأرسل لك المبلغ خلال ساعة.
- شكراً.. شكراً جزيلاً سيدي..
- أسبوع واحد.
- عفواً سيدي؟
- عليك أن تسدد المبلغ خلال أسبوع واحد، النسبة خمسة وثلاثون، وأي يوم يلي ذلك تزيد خمسة، كلامي واضح؟
- أ.. أجل.

الصفير الأحمر يصدح في رأسه، يُخفض الهاتف عن أذنه ببطء، ملائكته وشياطينه تتحدان بصوت واحد رغم اختلاف النبرة..

- من أين لك سداده؟

يهتز بدنه بصوت ثالث:

- قهوتك أستاذ.
- كم ثمنها؟
- خمسة.
- عفواً؟!
- خمسة!

المشهد السابع: الله ليس سخيفاً

قبل تسعة أعوام، وقبل أن يلتهم المشفى مجمعاً سكنياً آخر، في مبنى قريب، الشقة الثانية، الطابق الثالث، **ترتدي الثوب الحريري** وتنهض عن السرير، أما **الفتاة الأخرى** فتقتطع غرامين أو ثلاثة من كيس التبغ، تحضر ورقة اللف الصمغية، وتوزع التبغ على طول الورقة بالتساوي، وتلفها بشكل متناسق نسبياً.

ينكسر طبق زجاجي في المطبخ، تقول **التي بقيت في السرير** :

- هل أنت بخير؟
- بخير، مجرد طبق.
- هل أصنع لك لفافة تبغ؟
- لا، لا بأس سنشترك بواحدة إن رغبتُ في جرعة أو اثنتين.

تجلب **ذات الثوب** كوبين من الشاي، وشرائح التفاح المقطع..

- تفضلي، هل أجلب لكِ شيئاً آخر؟
- لا اجلسي بجانبي فقط.

تدخن تلك **التي بقيت في السرير** ، وترتشف من كوب الشاي، تنظر لها **ذات الثوب الحريري** ، وكانت عيون تلك **التي بقيت في السرير** تنجرف إلى مكان آخر، تشعل ذات الثوب المذياع على صوت فيروز، وكانت الأغنية تقول "لا تهملني لا تنساني، ما إلي غيرك لا تنساني".

تفكر تلك التي تلبس **الثوب الحريري** ، حول مناجاة **فيروز** ، فيما إذا كانت تناجي حبيبها، أم أنها كانت تناجي ربها، شمس المساكين، أو خوف المساكين، أملهم الذين يناجوه كلما كانوا خائفين، ربما تناجي **ذات الثوب الحريري** ، الاثنين، حبيبتها ألا تنساها، وربها الذي تناجيه في خوفها، خوفها من الغد، خوفها من الفقد، وخوفها من هذا اليوم الكريه.

تقول التي بقيت في السرير في قلبها..

"إنكِ تخدعين نفسك فقط ، هذا لا يهم، ***ستكونين بائسة*** ، لا يمكن لهذا أن يستمر، ***ستخسرين الشيء الوحيد الذي أحببته***، بلى، ***لمَ تفعلين هذا إذاً؟! لمَ تفعلين هذا بنفسك وبها*** ؟! ربما سنكون تعيستين، ربما هذا أفضل من أن تخسر هي حياتها، ***إنهم لا يغفرون لأحد***، وهل يغفر لنا هو؟"

تلسع السيجارة إصبعها، تضع إصبعها في فمها، وتدمع عيناها، تقول **ذات الثوب** :

- ما بالك شاردة، وهادئة جداً..

تضحك:

- وكيف يجب عليَّ أن أكون؟
- لا أعلم، أن تكوني مستاءة على الأقل.
- وبماذا سيفيد ذلك؟
- ربما لن يفيد بشيء، أتعلمين تجتاحني رغبة عظيمة في البكاء.
- دعينا لا نبكي، إن بكيت أنت فلن أستطيع احتمال ذلك.
- لماذا إذاً؟ لماذا ستتركينني؟
- يجب علينا أن نفعل ذلك.

- بإمكاننا أن نهرب معاً، إلى مكان آخر.
- نحن هنا الآن، وهذا شيء لن يتغير.
- أتعلمين، أرغب في أن أضربكِ.
- اضربيني إن شئت.
- إنك لا تحبينه حتى!
- لا، لكن عليَّ أن أتعلم كيف سأعيش معه.

تنهض ذات الرداء، تخلع ملابسها، تدخل الحمام.

ترتدي ثياباً جديدة، تضع **غطاء الرأس** ، تصلي، تنهض الفتاة التي في السرير، ترتدي **سروال الجينز** الأزرق، والقميص الأبيض، تفرغ ذات الغطاء من الصلاة.

- ستخرجين إذاً؟
- بعد قليل، لا زال هنالك بعض الوقت.
- لن أراكِ بعد اليوم، أليس كذلك؟
- إن أردت يمكننا أن نلتقي مجدداً.
- لا، دعينا لا نفعل، لن أستطيع احتمال وداع آخر.
- لماذا علينا أن نودع بعضنا؟
- إما أن تكوني معي دائماً، وإما أن تذهبي إلى الأبد.
- أنت تجعلين هذا صعباً جداً، اتفقنا أن لا نبكي.
- أما زلت تحبينني؟
- أكثر من أي شيء.
- لا تذهبي إذاً.
- من أجلك ومن أجلي، يجب علينا أن ننهي هذا.

تقول **ذات الغطاء** في قلبها..

"هل ما نشعر به خطيئة، كيف للحب أن يكون خطيئة، أهذا هو عقابك؟ أم أن عقابك لم يأتِ بعد! إنني أخشاك، لا يجب على الإنسان أن يخشى إلهه، لكنني أخشاك، كل شيء يقول لي إنك تعاقبني فقط".

تقول ذات **سروال الجينز** :

- بماذا تفكرين؟
- أتخشين منه؟
- إنه يرى كل شيء، إنه يرى كم نحن طيبتان مع كل أحد، نحن لم نؤذِ أحداً قط.
- أيكفي هذا.
- إن الله ليس سخيفاً إلى هذا الحد، ليراقب من يضاجع من، ويترك شرور العالم، وهذا الكم الهائل من الألم والفقر والبؤس.
- يجب عليك ألا تقولي مثل هذا الكلام.
- لكن ألا يبدو الأمر سخيفاً فعلاً، إنه لا يعاقبنا، بل إن كل شيء آخر هو الذي يفعل.

تحضر الفتاة نفسها لأن تخرج، تقول ذات الغطاء:

- هذه هي النهاية إذاً؟

- أعتقد هذا.
- ألا أستطيع أن أراكِ مجدداً؟
- أنت قلت أنكِ لا تريدين ذلك.
- بلى، يكفي حزن اليوم.
- كم هو كريه هذا اليوم، كريه ومقرف.
- بلى كريه جداً.
- ..
- أيمكنك أن تقبليننني.
- لا، لن أستطيع احتمال ملامسة شفتيك مرة أخيرة.
- هل القبلة أمرٌ صعب لهذه الدرجة.
- كثيراً.
- ..
- لن تبكي أليس كذلك؟
- لا أعلم، إن لم تبكِ أنتِ فلن أفعل.
- أحبك.
- وأنا أيضاً.

تخرج **الفتاة** من الشقة، تبكي ذات **غطاء الرأس** وتضع يدها على فمها، تنهار ذات **سروال الجينز** على الباب وتبكي.

المشهد الثامن: أوهام العاقل الضرورية

أنصاف قضمه تنهمل على الشطيرة، ينظر **(ذلك الذي يخشى الغرق)** إلى أرضية الكافتيريا، أقماع السجائر ملقاة على الأرضية، بقع القهوة المتعثرة هنا وهناك، وذرات السكر، يمضغ ببطء شديد، هكذا يعمل عقله الباطني، فيسد احتياج الجسد، وحالة اصفرار الوجه، أنفاسه العميقة وزفيره الطويل وصفير أنفه.

تمتد يد من الكرسي المجاور، فالكافتيريا ممتلئة، ولا حرج في أن يجالس الغرباء بعضهم في تلك الأماكن.

تُمد له سيجارة، يرفض بدايتها، يُخبره أن علبته في جيبه، لكن **الخمسيني** يلح عليه..

يقول **الرجل الخمسيني:**

- وكأنك تحمل هموم الدنيا يا رجل..

يقبل الذي يخشى لفتة الرجل بابتسامة خفيفة..

- الهموم مشتركة في هذه الأمكنة، ولذلك علينا أن نشعر ببعضنا، لا أحد يشعر بالحرج في المستشفيات.

يرد **الذي يخشى الغرق:**

- بلى أظن أنك على حق، بيد أن الهموم ليست بالدرجة نفسها، ولا بالأبعاد نفسها.

يضحك **الرجل:**

- بلى أتفق معك تماماً، فلا يُعقل أن يكون هم ذلك الذي كُسرت ساقه، أو من أُجريت له عملية دورية كإزالة الزائدة الدودية أو من في حالة المخاض بالتأكيد هموم هؤلاء وذويهم ليست بشدة هموم أولئك من يرقد عزيزٌ لهم بين الحياة والموت.

يضحك ذلك **الذي يخشى الغرق،** وقلقه يستثير هيجان عينيه، يضع **الرجل** يده على كتف الشاب.. بفضول واستغراب يسأله:

- ماذا حل بك يا رجل؟

يُخبره عن **(دلال)** و**الطفلة** التي لم يرها حتى الآن، يربت الرجل على كتفه:

- إن أردت أن تبكي فلا بأس، أرأيت! لا أحد يشعر بالحرج هنا، إن كانت زوجتك تحبك فعلاً، فهي لن تترك الحبل، أترى هي لن تستطيع أن تترك الحبل ففي قلبها يقبع أملٌ هائل جداً، الأمومة يا صاحبي، لا بد أن زوجتك أنانية إلى هذا الحد حتى لا تترك الحبل.

يفكر الذي **يخشى الغرق** فيما قاله الرجل الخمسيني، إنك لا تفكر في الجنس والمال عندما ترى الناس في أوهن صورهم، يغدو عقلك وقلبك مريضاً إذا ما فكرت بهذا الشكل، إن عقلك الآن لا يفكر سوى بكيفية بقائك حياً، يجبرك أن ترتاح وأن تغفو وأن تأكل بمقدار وجوب استمراره، بعكس قلبك الذي يريد منك أن تموت قهراً، حتى يستسلم هو الآخر لعقلك الديكتاتور، هنا الشطيرة ليست مجرد طعام، بل هي انعكاس لماهية الإنسان بأكمله، الأنانية والغريزة، إن شطيرة الطعام تخبرك بأنك لن تكون بحالة مصفرة، ولن تخضع لقلبك الذي يريد الراحة، إنك كإنسان لا تخشى عجزك، بل تخشى أن يخبرك أحد به، يستسلم الدب لجرح في قدمه ويموت وتعيش أنت رغم الفجوات في قلبك، ويدمي قلبك في البكاء، فيهدأ، وحينها قلبك أيضاً يتواطأ وعقلك، يتآمران من أجل أن يبقيانك حياً، فيتولى عقلك الشطيرة وقلبك البكاء.

المشهد التاسع: الحمار

تقتحم مدخل الطوارئ، تلتفت يمنةً ويسرةً، تحمل **صبياً** أسمر البشرة هزيل الجسد، جبهته مشروخة، اثنان من أضلعه مكسوران، كدمات متفرقة على ذراعيه، وساقيه ووجهه، شال **المرأة** منقوع بالدماء إلى حد التسريب والتلويث..

- فليساعدني أحدكم.

تصرخ **المرأة** ، تهرع بعض الممرضات والممرضين..

- سنتولى أمره من هنا.

يقول أحدهم.

الفتى يهذي..

- الحمار، أين حماري.

يردد الكلمات ذاتها مرات عدة حتى يغمى عليه من الألم الذي تكيف معه جسده، بيد أن هذه المرة حماره ضائع.

يستيقظ تحت حدة صراخ جسده، جبينه تغرز فيه الإبرة، يداه ورجلاه مقيدتان من قبل ممرضتين، ونزيفه الداخلي يتم تجاهله في الوقت الحالي، جسده في حالة حيرة، لا يعلم في أيٍّ من الآلام يصرخ.

يدنو **ممرض** نحو السيدة الأنيقة..

بلهفة، تسأله:

- كيف حاله؟

- لا تقلقي مدام، زملائي سيعتنون به أحسن عناية، عليك أن تتجهي نحو شباك التسجيل، لتسجيل بيانات ولدك ودفع بعض الرسوم الضرورية.

- لا بأس سأدفع أي شيء، لكنني لست أمه.

- إذاً من يكون؟

- لا أعلم وجدته على حدود الحديقة عامة، مستلقٍ على لوحة كرتونية يرتجف من البرد والألم.

- ألم تسأليه حول عائلته أو أحد من أقربائه؟

- بلى، لقد فعلت، غير أنه كان يهذي بتلك الكلمات نفسها التي أدخلته بها هنا.

- أنت لست مضطرة إلى أن تتحملي مسؤوليته.

- وهل سيتم الاعتناء به جيداً إن رحلت الآن؟

وكأنها تستجوبه..

- بالطبع، لن ندعه من دون علاج، لكننا مضطرون حينها إلى إبقائه هنا، قبل نقله إلى سرير في الطوابق العليا، أو إن احتاج الأمر إلى الطوارئ، إلى حين أن يصل أحد من الشرطة أو أحد من ذويه..

بنبرة غضب:

- أتقصد أنك ستتركه هنا هكذا، هل فقدت عقلك؟ هل فقد العالم عقله، إنه مجرد طفل.

- ليس هنالك حاجة إلى استخدام هذه الألفاظ مدام، هذه إجراءات المشفى، إن كنت مهتمة بالأمر كثيراً، فلتتحملي أنت أمره.
- أنا لم أقصد ذلك، لكنني مستعدة للتكفل بأمر الفتى مهما احتاج الأمر.
- لا بأس، عليك أن تعلمي أنني لست أكثر من موظف بسيط، بأجر بسيط، عندما أنهيت جامعتي أنا وزملائي، كنا نحلف بروح الإنسان، أما هنا، حيث البراز والدماء والبول والرؤساء، فكل شيء يصبح ضبابياً، حتى شرائعنا الأخلاقية.
- لكنه مشفى حكومي، أعني أن الحكومة عليها أن تتكفل بذلك؟؟
- بلى الحكومة تُعنى كثيراً بمصالحنا.

يبتسم بغيظ!

المشهد العاشر: الوشاح

يتمنى **الذي يخشى الغرق** و**الخمسيني** الحظ والتوفيق لكل من الآخر ويفترقان كلٌ إلى همومه الخاصة، يطول انتظاره للمصعد، يقرر أخذ الدرج اختصاراً للزمن الذي يمر، يصل غرفة **(دلال)** .

يستوقف **الممرضة اللطيفة** ، تلك التي ترتدي ذلك المتقاطع حول رقبتها.

يسألها:

- كيف أصبح حالها؟
- لا يزال من المبكر الجزم، سيحتاج الأمر ساعات على أقل تقدير.
- آه يا الله، وماذا عن **الطفلة** ؟
- ما قالته الطبيبة أن الطفلة ستحتاج إلى أن تبقى متصلة بأنابيب الأكسجين، ولا أخفي عليك عندما أقول إن الأمور تدعو إلى القلق.

يمسك رأسه، يهذي ببعض الكلمات..

- أنا آسفة حقاً، ليتني أستطيع أن أخبرك بأمر يسر نفسك، ربما عليك أن تتصل بأحد من ذويك يعينك على حالتك.

ينظر إليها:

- شكراً لك، أعلم أنك تقومين بعملك لا أكثر، وأقدر صراحتك حقاً.
- العفو منك، الأمر لا يستحق على الإطلاق!

يتصل بالأخت الصغرى لـ **(دلال)** ، تلك **التي ترتدي الوشاح** الذي برأيها يعبر عما ضاع.

تستل هاتفها، رقم ذلك الذي تخشى أن تقع عيناها عليه، تتردد في أن تجيب، حتى تستجمع ما لديها من كبرياء فترد:

- ألو، مرحباً.
- ألو.. كيف حالك؟
- بخير.. وماذا عنك؟ وكيف **(دلال)** ؟ وولية العهد؟
- أنا لست بخير، لست بخير على الإطلاق.

بنبرة قلق:

- ما بك؟ هل حصل شيء لكما؟ هل **(دلال)** بخير؟

صمتٌ لثوانٍ، بنبرة قلق أشد:

- ألو ألا زلت معي؟
- **(دلال)** في المشفى.
- ماذا؟ كيف؟ لمَ؟ ما الذي حصل؟
- لا أدري، حسناً، أنا فقط لا أدري.
- في أي مشفى أنت؟
- في الحكومي.
- سأكون هناك في غضون عشر دقائق، لكن هل أخبرت أحداً؟

تعلو نبرة صوته قليلاً:

- لا أعلم.. أخبريهم أنت.
- حسناً، حسناً لا تقلق، سأتولى أنا الأمر، أراك قريباً، وداعاً.

يغلق الخط.

كانت قد شربت من عند **العجوز** ما يقارب أربعة من أكواب الشاي، يخبرها هو عن سنوات عمره الطويلة، كيف كان في ريعان شبابه، عن المظاهرات التي كان ينسقها هو ورفقاؤه، عن زوجته التي رآها أول مرة وهي تصفع وجه الجندي في إحدى تلك المظاهرات، وعن مرضها، عن سجنه الطويل وعن موتها، عن أولادهم الذين هجروهم، يخبرها قبل أن يرن هاتفها بلحظات أن تحيد عن هذا الطريق الموهوم، أن ما عاد أحد يصرخ، أن لا أحد يقابل حبيبه في تلك المجاميع الرخوة.

تشكر العجوز وتصر على دفع ثمن أكواب الشاي، رغم رفضه المتكرر، إلا أن حاله الظاهرة تؤكد ضرورة إصرارها على ذلك، تُسارع في إيجاد واحدة من مركبات الأجرة الخاصة والباهظة، حتى تجد إحداها سريعاً وبلا عناء كبير، تدق الأرقام تسلسلاً، **أمها** التي لا تقوى على الحراك، فأختها **التي تتظاهر بالعمى** و**زوجها** ، والمسكينة **التي تطلب الدفء** كثيراً و**زوجة ذي العمامة** ، وصلت خلال دقائق إلى المشفى، قسم الولادة، حيث وجدته يجلس على المقعد الأزرق منحني الظهر واضعاً إحدى كفيه على وجهه والأخرى مستقرة على فخده، تقترب منه شيئاً فشيئاً، كانت تتمنى في نفسها لو أن السماء تمسح ذاكرته أو ذاكرتها، تقترب منه أكثر، ينظر لها، لا تتكلم، يبتسم لها، يقول لها:

- هل تراه سيأخذها مني؟

ويبدأ بالنحيب الصامت، تضع يدها على كتفه وتبكي هي الأخرى.

المشهد الحادي عشر: عيونٌ لا ترى من خلال الدخان

تقول ممرضة:

- أهذه الجميلة ابنتك؟

يبتسم المريض:

- لا أعلم إن كانت جميلة فعلاً، لكنها شقية بالتأكيد.

تقول الجميلة:

- هكذا إذاً، ما رأيك بأنني سأتركك هنا وحدك إذاً.

يضحك الرجل:

- يطاوعك قلبك على ترك أبيكِ؟
- إن كان أبي يشكك في جمالي **الساحر !**

يضحك:

- إذاً لم تغضبي لأنني قلت عنك شقية**!**
- كَوني بكرُ أولادك، ولوجود شقيين في البيت، على البنت أن تكون قوية وشقية، لتحميهم وتحمي نفسها منهم.

يضحك..

تقول الممرضة:

- حسناً أيتها الجميلة، يبدو أن أباك سيتعامل مع أولئك الشقيين قريباً.

تقول الجميلة:

- أتقصدين أنه سيخرج..
- أعتقد هذا، يبدو أنه في صحة جيدة، ثم أنه معنا، لم لا نسأله.

يقول الرجل:

- لقد مللت هذا المشفى، وهذا الرداء، وهذا الطعام، حتى أنني قد نسيت كيف يكون طعامُ المنزل.

تضحك الممرضة:

- يبدو أنك قد مللت منا يا عم.
- إن أردتِ الحقيقة، فلا شيء يشبه أم هذه البنت، طعامها ورائحتها التي تملأ المنزل و ... .

تقاطعه الجميلة:

- أبي إنك تحرجنا، يا إلهي.

تضحك الممرضة:

- حسناً إذاً، سيأتي الطبيب يعاينك، وسيخبرك بالتأكيد عن موعد خروجك.
- شكراً لك كثيراً.
- لا تشكرني يا عم، أتريد مني شيئاً.
- إن لم يكن هنالك مشكلة، أشعر ببعض الألم الخفيف في صدري.

تتحسس الممرضة موضع العملية:

- هنا يا عم؟

بانتفاضة خفيفة:
- أجل.
- لا بأس عليك، سنعطيك بعض المسكنات حالما يأتي الطبيب لمعاينتك.
- شكراً لك.
- العفو.

تخرج الممرضة، تقول الجميلة:
- أتشعر بالألم كثيراً؟
- لا، لا تقلقي، ألمٌ بسيط، لكنني أشعر بالملل.
- هل أجلب لك الأوراق، لعلك تتسلى قليلاً.
- لا مللت الأوراق كذلك، أتعلمين بِما أرغب..
- بماذا؟
- تعديننني بأنك لن ترفضي.
- إذاً فهو ممنوع؟
- قليلاً فقط.
- ما هو؟
- أرغب في سيجارة وكوب من القهوة السوداء.
- أنت تعلم بأن هذا ممنوعٌ تماماً، لن أفعل.
- لا تقلقي لن يحدث شيء.
- يا أبي لقد سمعت ما قاله لك الطبيب، عليك أن تنتبه لغذائك وأن تبتعد عن التدخين والمنبهات كلها.
- يا حبيبتي، من عادة الأطباء أن يغالوا في كل شيء، كما أنني لن أدخن كثيراً، ولن أشرب سوى ربع الكوب.
- لا أعلم، ثم إن هذا ممنوع، ماذا لو رآني أحدهم!
- لا تخافي، ضعي السيجارة في جيبك وغطي الكوب بيدك، فيعتقدون أنه لكِ، كما أنك لم تأكلي شيئاً البارحة ليلاً، ولا هذا الصباح، اجلسي في الكافتيريا وتناولي شيئاً، أو اجلسي في الخارج، لعلك متعبة أنت الأخرى.
- أتعدني بأنه لن يحصل لك شيء؟
- أعدك.

خرجت الفتاة من الغرفة، تلوح للممرضة، ثم تلوح لها الأخرى وتبتسم، تنتظر المصعد، حتى يصل أخيراً، وكان فيه ممرضٌ يجر سريراً قد أصابه الدم، تدخل الجميلة، وقد كانت مرتبكة، تنظر إلى السرير فتكاد تتقيأ، يسألها الممرض:
- أي طابق؟
- ماذا؟
- إلى أين ستذهبين؟
- الأرضي، شكراً لك.

ثم يضغط الرجل زر الطابق الأرضي، وقد بدا عليه الإرهاق، حين وصل المصعد، خرجت الفتاة وقد امتلأ الرواق بنحيب فتاة بعمرها، وامرأة وطفلين، نظرت إلى الفتاة، ونظرت الفتاة إليها، قالت لها الفتاة:

- لماذا تنظرين إلي؟
- لم أقصد.
- ما الذي تنظرين إليه؟..

تبكي الفتاة:

- لقد قتلوا أبي.

تسير الجميلة بمحاذاة الحائط، تقول:

- أنا آسفة، أنا آسفة.

تمسك الفتاة الأخرى يد الجميلة:

- لماذا قتلوه، أخبريني.

بذعر:

- أنا آسفة، أنا لا أعلم.
- لماذا أبي، لماذا لمْ يكن أحدٌ آخر، لماذا لم يكن أبوكِ؟

تسحب الجميلة يدها، ثم تصفع الفتاة:

- لا بد أنكِ فتاة شقية، ولا بد أن أباكِ رجلٌ سيئ، لهذا مات.

تبكي الفتاة، ثم تدفع الأم الجميلة:

- انصرفي من هنا أيتها الوقحة.

تجري الفتاة بسرعة، ثم تصرخ:

- إنكم تستحقون ما يجري لكم، لا بد أنكم أناسٌ سيئون، أما أنا فلست وقحة أو شقية، وأبي رجلٌ طيب، تباً لكم، أتمنى أن تهلكوا جميعاً.

تجري الجميلة مسرعة، ودقات قلبها تتسارع من الخوف، تخرج من المشفى، لتختبئ خلف شجرة الخروب بجانب مدخل المشفى، تبكي.

في الأعلى يدخل الطبيب إلى المريض:

- كيف حالك؟
- أشعر بالألم في صدري يا دكتور.
- لا بأس عليك، إنه جرح العملية.

يشير الطبيب إلى الممرضة بإعطاء ستة آلاف مليجرام من محلول الـ "تايلينول" (Tylenol) ، وهو نوع من أنواع مسكنات الآلام، تنوه الممرضة للطبيب بهمس عن خطورة إعطاء هذا المقدار من المحلول، لما له من آثار جانبية خطيرة، عدا عن خطورة خلطه وتعارضه مع الأدوية الموجودة في جسم المريض، بيد أن الطبيب يغضب ويأمرها بإعطاء المريض الجرعة الزائدة..

تحمل الجميلة كوب القهوة، وقد وضعت يدها عليه كما أشار عليها أبوها، وكانت قد حصلت على سيجارة من أحد الشبان الذين يدخنون في استراحة المشفى، تتجنب المصعد هذه المرة وتأخذ السلم عوضاً عن ذلك، تدخل غرفة أبيها، وكانت الممرضة تعطيه الجرعة الزائدة، تخفي الفتاة الكوب خلفها، وترتبك الممرضة..

- مرحباً يا حلوة.
- مرحباً.
- أين كنت؟
- في الخارج، شعرت بالملل قليلاً.

تقول الجميلة..

- كيف أنت يا أبي؟
- بأحسن حال، أكلتي جيداً؟
- أجل.

تستأذن الممرضة، يشير الرجل إلى ابنته، تضع الكوب على المنضدة بجانبه، وتعطيه السيجارة ..

- هل أنت بخير فعلاً، جبينك متعرق.
- أنا بخير، ربما الدواء يجعل جسدي متعرقاً أو أن اليوم دافئ.
- إنها تمطر في الخارج.
- ربما حرارة الغرفة إذاً.
- لا أعلم، أعني أنني أشعر بالبرد.
- ربما لأنك دخلتِ الآن.
- ربما، ستفعل كما وعدتني، قليلٌ من القهوة فقط، ولن تنهي السيجارة، اتفقنا؟

يضحك الرجل..

- حسناً سيدتي.

يحتسي قليلاً من القهوة، ويشير بلذة "لا شيء يعادل طعم القهوة الساخنة". يشعل سيجارته ويسحب نَفَسَهُ الأول مبتسماً، يرتشف المزيد من القهوة، ويسحب نَفَسَهُ الثاني، ثم أصبح يَسعُل بحدة، تقول الجميلة:

- يكفي يا أبي.
- سحبةٌ أخيرة.

يزداد العرق على جبينه وترتجف يده بقوة، يسحب نفسه الثالث، وقد صار يسعل بحدة أكثر، تقترب منه الجميلة:

- أنت بخير، أبي، أبي، أنت بخير؟
- أنا بخير "يسعل"، أنا.. بخير.

يسعل أكثر، ويرتجف أكثر وأكثر، يبدأ كل جسده بالانتفاض بقوة، في نوبة فوضوية، واهتزازاتٍ عنيفة، يلهث، "لا أستطيع التنفس" وقد صار وجهه مغطى بالدخان واللعاب والقهوة، يتمزق صدره إثر الانتفاضات العنيفة، ويغرق الرداء والسرير بالدم، ويمتلئ فمه بالدماء، وفي سعلة يلفِظُ الدم على الجميلة، تصرخ.. "أبي، أبي، ساعدوني أرجوكم"، تهرع الممرضة، وكان قد سكن في فوضى الدماء والدخان والقهوة وعيني الجميلة الداميتين.

تصوب الجميلة بعينيها الداميتين نحو الممرضة..

- لماذا قتلته؟

تجزع الممرضة:

- لم.. لست.. لم أكن أنا!

- لماذا قتلته؟

تُتمتم الممرضة برعب، بينما تخطو خطوة بعد أخرى إلى الوراء "لم أكن أنا".

بعد نحو ساعة، تضم الأم وجه الجميلة الدامي، تحدث الطبيب، بينما تبدو الأصوات في أذن الطفلة أشكالاً هلامية بلا جسد، تبكي الأم يبكي الشقيين، وتبكي الجميلة، في رواق الطابق الأرضي، يصل المصعد ويخرج منه السرير الدامي والممرض المرهق نفسه، وفتاة أخرى مذعورة، تنظر لها الجميلة، تصرخ، "إلى ماذا تنظرين؟" "– Agnus Dei, op.11 Barber "

المشهد الثاني عشر: العمى والغباء

كان ثوب تلك **التي تطلب الدف** قد بدأ يجف، يبتعد عنها **ذي العمامة** ، يتمتم..

- لا أدري ما الذي أعمى بصيرتي وجعلني أسمع كلامك

بصوت حرج:

- لكنك سمعت ما قاله الطبيب لنا، هنالك أمل، والعلاج بسيط وغير مكلف.

بغضب:

- هذا طبيب فاجر وكافر، لا أدري كيف يمكن للناس أن تخرج عن منهج الله وحكمته.

بصوت هادئ:

- وهل رأيت إلهاً يظلم إلى هذا الحد كإلهك؟!

يصفعها بظهر كفه:

- وهذا ما أجنيه أنا من عائلتكم الفاجرة، كيف تجرئين على الاعتداء على قدسيته وخطته، أم أنكِ نسيتِ أنه أرسلني لكِ، غافراً لكِ فسوقكِ، كان عليَّ أن أدرك منذ اليوم الأول، لكن ماذا أقول إنها إرادته، لك الحمد يا الله.

تكاد تتكلم، قبل أن يسكتها بسباب يطول أمها المتوفاة..

- لا أريد سماع أي كلمة أخرى، باعدي ثوبك عن جلدك وابقي خلفي.

يرن هاتفها الذي بحوزته، رقم بلا اسم، يزداد صراخه مرة أخرى:

- لمن هذا الرقم؟ أخبريني حالاً.

بخوف، تقول له:

- لا أعلم، كيف لي أن أعلم، هاتفي دائماً في حوزتك، إن كان يجوز لي حتى أن أدعوه هاتفي!

- وتتحذلقين أيضاً، سيكون يومك أسود إن كان رجلاً.

يرفع الهاتف إلى أذنه:

- ألو من معي؟
- ألو مرحباً.

بنبرة لطيفة:

- أهلاً.. أهلاً، بماذا أستطيع خدامتك آنستي؟
- أنا **أخت (دلال)** ، زوجتك موجودة؟
- طيب، طيب.
- خذي، إحدى عاهرات **شقيقك** الفاجر.

بحرج، تقول:

- ألو مرحباً.
- أقسم أني سأقتل هذا العاهر الذي تسميه زوجك يوماً ما.

تضع يدها على ميكروفون الهاتف:

- أنا أسفه كثيراً، تعلمين طباعه.
- بلى طباعه أن يكون وضيعاً ذلك المخصي.

- أرجوك اهدئي، سيفتعل مشكلة جديدة إذا ما سمع هذا الكلام.
- حسناً، حسناً، على أي حال، أنتم في البيت؟
- لا في المدينة!
- هذا أفضل، **(دلال)** قد دخلت المشفى، يبدو أنها حالة ولادة مبكرة.

تسأل بتعجب:

- هي لا تزال في شهرها السابع، كيف هذا؟؟
- هذا ما حصل، ويبدو أن هنالك بعض المضاعفات خلال العملية.
- أخي عندك؟ كيف هو؟
- يتظاهر بالقوة، لكنه في أمس الحاجة لنا جميعاً.
- حسناً، نحن قادمون حالاً.

يقول **ذو العمامة:**

- من هم القادمون حالاً؟
- زوجة أخي في المشفى وفي حالة حرجة.

يقول باستحقار:

- وبماذا يعنيني الأمر؟
- أخبرك أن زوجة أخي، أخي!
- هذا ما يجنيه الساقطون كأخيك ذاك، ألا ترين ما ترتديه امرأته، إنها حكمته لا إله إلا هو.
- كفاك، أرجوك كفاك، كل ما أريده الآن هو أن أكون بجانب أخي، أيقاضيني ربكَ بأخي، أم أنهُ أنت هو الجبار، فأتضرع لك أنت كي أرى أخي، في مصيبته، يا إلهي، يا أنت، كن زوجاً، كن إنساناً؟!
- أتعلمين لو لم نكن في منتصف الطريق..

بجرأة لم تعهدها في نفسها:

- بلى أعلم ما كان سيكون، هذا الأسود يستر عريك كذلك، ليس فقط عريي.
- كفاك كلاماً بلا فائدة، سنذهب إليهم، سررت الآن؟
- انظر إلى وجهي، اعذرني نسيتُ هذا الأسود، انظر في عيني فقط، بلى سعيدة كثيراً أبدو؟!

تضع تلك **التي تدعي العمى** الدجاج في الماء، تصنع مرق الدجاج، تضيف عليه الملح والبهارات، وتجلب كيساً صغيراً تصنع فيه ثغرات دقيقة، تقطع الثوم والبصل، وتضعه في الكيس، فيعطي المرق نكهة مميزة دون أن تنتشر فيه قطع الثوم والبصل التي لا يحبذها **زوجها**، تجعله يغلي، تتذوق مقدار ملعقة فملعقتين من المرق، تُزيل الدجاج من المرق، ترشه ببهارات لاذعة، ومسحة خفيفة من زيت الزيتون، وتضعه بالفرن حتى يصبح الجلد مقرمشاً ذهبياً، تعود إلى المرق، تضيف عليه القليل من الملح وقطع لحم الحملان الطازجة، تضيف الفاصولياء المنقوعة منذ زمن، ثم كيسين من صلصة البندورة.

يرن هاتف المنزل..

- ألو مرحباً؟
- ألو كيف حالك؟

بمرح زائف:

- بخير، مشتاقة لكِ كثيراً، ولأمي أيضاً، ولـ**(دلال)** ، رغم أنني لم أزرها منذ مدة، كيف حالها هي الأخرى؟
- حسناً يبدو أنك قد اختصرت عليَّ الطريق، **(دلال)** قد دخلت المشفى صباح اليوم.
- المشفى؟! لماذا؟ ما الذي حصل؟
- يبدو أنها حالة ولادة مبكرة.
- أو لا يبدو الأمر غريباً؟!
- بلى قليلاً، لكن عند التفكير بالأمر ومشاكلها الصحية يبدو الأمر محتملاً، وعلى الأرجح أن ذلك هو السبب الحقيقي.
- بلى لعلك على حق.
- ستأتين أليس كذلك؟
- بلى لكن عليَّ أن أنتظر زوجي، هو لا يحب أن أهاتفه عندما يكون في عمله.
- حسناً الأمر طارئ ولا أرى في الأمر حرجاً.
- بلى معك حق، سأهاتفه حالاً، أراكِ هناك.

السينما مظلمة، والفيلم في منتصفه، **(المسحور)** لا يعير انتباهاً لأمر الفيلم، يتحسس **فخديها** أملاً في أن يصل إلى غايته **المتمركزة** ، بيد أنها في كل مرة تدفع يده بلطف وابتسامة ماكرة غاوية، ويعيد كل منهما التسلسل نفسه أكثر من مرة باختلافات بسيطة، لكن ذكية من الفتاة الفاتنة، ففي مرة تجعله يستمر في مداعبتها لدقيقة قبل أن تدفع يده، وفي مرة أخرى بعد ثوانٍ قليلة فقط، تداعب فيها عقله، فيهيأ إليه أنه في المرة القادمة سيصل مبتغاه، بيد أن ذكاءها وحنكتها يتغلبان على الهيجان الجنسي في كل مرة، فلا يندفع خشية ردع فاضح.

كان الفيلم واحداً من أفلام **(الأخوين واتشاوسكي)** ، بعنوان **(غيمة أطلس) - (Cloud Atlas)** ، بالطبع هو لم يختر الفيلم لجودته، بل لمدة عرضه التي تصل إلى نحو ثلاث ساعات، عدا عن التحضيرات التي تقع قبل عرض الفيلم بالعادة، والتي قد تستمر نصف ساعة أو نحوها، وهذا ما يتيح له فرصة أعلى للخلاء تحت ستار العتمة والشهوة.

يرن هاتفه النقال، ترتفع أصوات الشكاوى من هذا الاضطراب والإزعاج، وبخاصة في واحد من الأفلام الذي يستوجب درجة عالية من التركيز، يحمل هاتفه واضعاً كفه على مكبر الصوت، هامساً بألفاظ الاعتذار، وهو يعدل موضع عضوه المنتصب.

تخرج هي كذلك، تسأله:

- ما الأمر؟

يخبرها أن هنالك أمراً اضطرارياً قد حصل ويشرح لها الأمر مضيفاً إلى ذلك تساؤلاً:

- أوليس ذلك المشفى الذي تعملين فيه؟

تجيبه بالإيجاب، وبترقيق صوت، وميلان قامة، وإبراز لثدييها..

- للأسف لن نستطيع أن نكمل الفيلم.

يرتجف هو وقد بانت علامات الفيض..

- بلى كان مثيراً، مثيراً للغاية.

يضيف قائلاً:

- أتريدين أن أوصلك؟

تجيب هي:
- لا، لا داعي لذلك، ربما سأراك هناك؟
- بالتأكيد، متشوقٌ لذلك.
يوقف لها مركبة أجرة، ويعود إلى استراحة صالة العرض، يدخل دورة المياه وقد ظهرت بعض البقع على سرواله حول منطقة عانته، يحاول أن يمسح اللزوجة قبل أن تجف وتصبح خشنة، بيد أن ذلك يساعد على إبرازها أكثر فحسب، يصل المنزل، وقد وضع حقيبة اليد حاجباً حوضه عن عيني زوجته العمياء.
باستنفار مشبوه:
- ألم أخبرك أن لا تهاتفيني وأنا في العمل.
- أنا آسفه، لكن الأمر ضروري، كما أن الساعة قد جاوزت مواعيدك المعتادة لقدومك إلى المنزل.
بتأتأة فاضحة:
- هذا ليس من شأنك، متى ذهبت أو حضرت.
- حسناً، حسناً، لا تغضب، كل ما في الأمر أنني قلقت لا أكثر، هل أنت جائع؟
- لا.
- قد حضرت لك الفاصوليا باللحم التي تحبها.
- لا بأس لا أشعر بالجوع.
- حسناً.
- حضري لي بعض الملابس النظيفة، سأستحم سريعاً قبل أن نذهب.
- أنهاتف مركبة أجرة الآن؟
يتذكر أن السيارة الفارهة لا تزال بحوزته..
- لا داعي لذلك، قد استعرت سيارة صديق لي، تحسباً إن احتجناها اليوم، أعلمت الآن لم تأخرت.
- قليلون هم الأصدقاء بمثل هذه الشهامة.
بمفاخرة:
- بلى كما أنني رجل محبوب، وعديدون هم الذين يبذلون الكثير من أجل كسب مودتي.
- أكثر الله محبيك حبيبي.
يدخل المستحم، ويغرق الأرضية بالماء، يخلع ثيابه، ويبللها، حتى يبدو الأمر وكأن البلل قد أصابها من الماء العائم، رغم أن المستحم قد صمم بميلان حفيف حتى يحتوي الماء، بيد أن الفكرة قد بدت له منطقية بما فيه الكفاية كما أن ذلك سيبدد أي شكوك أو تساؤلات هو في غنى عنها.
العمياء تحضر نفسها ريثما يفرغ زوجها، القليل من مساحيق التجميل، وواحد من الفساتين المتواضعة من فترة خطبتهما، يفرغ هو، ويحثها على الاستعجال..
قد لاحظت رفاهية المركبة، وفي قلبها تشك، "أي صديق يُعير مثل هذه السيارة؟!"، وذلك حتى شدت انتباهها علامة تجارية تُعنى بإحدى وكالات تأجير المركبات، بيد أنها لا تتفوه بأية كلمة، تركب السيارة، وعطر فواح لطيف ينتشر في المركبة، عدا عن أحمر الشفاه القريب من ناقل

الحركة، بيد أنها تتظاهر بعدم رؤيتها له، يجفل زوجها من أحمر الشفاه وبحركة خاطفة يضعه في جيبه.

المشهد الثالث عشر: الفيلسوف الهمجي

في الأزمان الغابرة، قبل أن يغزو اللَّوث الومضي السماء المعتمة، ومعالم الكون الطيفية الهائلة، وميلان ألوان المجرات والحزم النجمية والغبار الكوني إلى الاحمرار والزرقة وما بينهما من ألوان الطيف التي تشير إلى بعدها وقربها عن الناظر.

تحت سماء الليالي الصافية المتلألئة كان يقبع الهزيل في بقعة غير معلومة من قارة أفريقيا، حيث أصبحنا إنسانيات للمرة الأولى، عندما كنا لا نزال عالقين بين مرحلة نأكل فيها بني جنسنا، وفي أخرى نصرخ الصرخات الأولى للغة والتعبير.

يداه مكبلتان بحبال يصعب جرحها أو قطعها، مستأصلة من شعر وصوف المجترات الصغيرة، وألياف دقيقة معقودة، مأخوذة من قصب السكر وسيقان الموز المتينة، مرتكزاً على ركب ساقيه، لم يعد يتذكر جرمه الذي رمى به إلى هذا الكهف المهجور، ولعل حالة الجوع الدائمة لا تساعد عقله الذي اصطفته الأم حديثاً.

آخر ذاكرة لوجه إنساني بدأت بالتلاشي، يذكر بشكل هلامي تجسيد امرأة ناضجة، بغير لونه، عندما حاول الاقتراب منها بصرخات الهجاء الأولى، والهمجية الإنسانية اليافعة، لاذت بالفرار ووجد نفسه هنا.

لا يعلم الزمن الذي أمضاه هنا، ومن طول لحيته الكثة، يبدو أنه مكث ما يجاوز تنبؤات أولئك الذين حجروه، حتى هيئ إليه أنه لم يقابل أحداً قط، أنه خُلق هنا مكبلاً.

كان ما يأتيه من رفقاء لا يتعدى بضع فصائل حيوانية، تنجذب إلى رطوبة الكهف وعتمته. تلك الفصائل الحية الصغيرة المتمثلة بالجرذان، والفئران، والسحالي الصغيرة والمتوسطة، وأحياناً بعض الأرانب، تلك الكائنات الصغيرة كانت تمثل له رفاهية نادرة ومصدراً محتملاً للغذاء، فيلبث ساكناً حتى تقترب منه، فيرفع باطن أرجله المتقرنة، ويضربها بالأرض عشوائياً وبعنف مطرد حتى يصيب الحيوان فيطرحه ساكناً، فيخفض رأسه سريعاً، ويلقي بثقله المتواضع على مفاصل أذرعه الهزيلة حتى تنخلع من مكانها، ويعظ على رأس الحيوان فيزهق روحه تماماً.

بالطبع، الطبيعة لم تكن تحسن إليه دائماً، فكان أحياناً يمضي أياماً يأكل فيها الأتربة، حتى وإن اشتد عليه الجوع قضم من ذراعيه مقداراً يساعده على البقاء، وهذا ما يسهل عليه خلعهما إذا ما أفاضت عليه أمه بالرفاهية.

قد حل ظلام ليلة أخرى، لم يدخل جوفه خلال الأربعة أيامٍ الماضية سوى حفنات من الأتربة، وقطرات من الماء الذي يتشكل على جدران الكهف، وبعض الفصائل الرخوية، كان يتهيأ إلى ذلك الألم الضروري الذي أبقاه حياً إلى الآن، فما البقاء إلا استهلاك بطيء لحيواتنا، وفيما كان يستعد لذلك، انهار جزء من سقيفة الكهف إثر ما لحق به من تعرٍ، وما أصابه من ماء الشروق البارد، يدير رأسه بعدما همدت الغبرة والضوضاء، حيث رأى مصابيح معلقة في السماء السوداء، كانت السماء بأشد حالاتها صفاءً ووهجاً، حيث حدود أطياف مجرة (درب اللبانة) القريبة نسبياً، والغيوم النجمية التي تزين حزام مجرة (أندروميدا) الأقرب إلينا من بين تريليونات المجرات، قد سلب المشهد عقله، وأخذ يفكر في نفسه عن الأسباب التي كانت تمنعه من النظر إلى الفضاء عندما كان طليقاً من أجل نفسه، في تلك اللحظة نفسها، قد أتته رؤى عن نفسه في حيوات أخرى لم يعشها، رأى نفسه وهو يهوي عن علوٍ فيصطدم بالأرض ويتناثر دماغه إلى قطع صغيرة في واقع أشبه

بالخيال، وفي رؤية أخرى رأى نفسه على أنقاض حضارات قد زالت، حضارات أنقاضها الإسمنت والحديد، ينظر لها من على سفح هضبة، رأى الأنثى نفسها، رأى نفسه يتفوه بما لا يستطيع عقله تفسيره، حيث أمسكت الفتاة يده، وفي اليد الأخرى تتسلل يد لطفلة لم يرَ مثيلاً لجمالها.
في تلك اللحظة عندما برز أول الواعين، كان الهزال والجوع ضروريين، في تلك اللحظة عندما عرف كيف يبصر، مات جوعاً.

المشهد الرابع عشر: الزجاج

كانت تكره ذلك الاضطراب الناتج عن الصمت، أن تجلس بجانب أحدهم فلا تتفوه بشيء، كانت تقول في نفسها..

"لا بد أنه هو كذلك يشعر بنفس حالة الاضطراب والغرابة".

تستطرد في نفسها كذلك..

"أو أنني أعطي الأمر أكثر من حجمه، لعله لا يفكر بالأمر من الأساس، ولا بد أنه قلق بشأن **(دلال)** أكثر من قلقه بشأن هذا الصمت والانتظار الحقيرين".

تقول **ذات الوشاح** بصوت مسموع:

- لماذا تأخروا؟

ينظر إليها ذلك **الذي بات يتوق للإبحار:**

- لعلهم علقوا بأزمة مرور أو ما شابه، فقبل أن تهاتفني (دلال) كانت الزحمة خانقة، رغم أنها لم تكن ساعة الذروة، ولا بد أن المدينة عامرة بالمشاة والمركبات بهذه الساعة، وبالأخص أن أغلب العاملين يذهبون إلى منازلهم في هذا الوقت.

تقول **ذات الوشاح:**

- كنتَ في العمل إذاً عندما هاتفتك (دلال).

يرد عليها:

- كلا، قد طلبت إجازة اليوم، العشرين من سبتمبر، ذكرى زواجنا الرابع، يبدو أن القدر يريد أن يسخر منا.

رأته بدأ ينجرف إلى زنزانة عقله المضطرب، تراه بدأ في الانجراف إلى الظلمة التي يتوق إليها، فهي كانت نزيلته في أغلب سنين عمره.

تقاطع رفعه للمرساة:

- لا تقلق، أنا متأكدة أن الأمور ستكون بخير، لا تفكر بالأمر كثيراً، ما رأيك بكوب من القهوة؟
- سأجلب لنا نحن الاثنين.
- سنذهب كلانا إذاً.
- ماذا لو طرأ أمر ما؟

كانت **اللطيفة للغاية** تنتقل من غرفة إلى أخرى، تفحص المؤشرات الحيوية، تضيف المحاليل البروتينية ومسكنات الألم..

يستوقفها ذلك **الذي أحب:**

عفواً يا آنسة، أهنالك جديد بشأن **(دلال)؟**

ترد عليه:

- أعتقد أن الطبيب المناوب يقوم بجولته الآن بين المريضات، سيكون هنا خلال نصف ساعة على الأكثر.

تقول ذات الوشاح بهمس:

- أيمكننا أن نسألها إذا ما كانت تستطيع أن تخبرنا إن طرأ أمر ما؟

يرد عليها سريعاً:
- لا أظن أن هذا عملها، سنحرج أنفسنا وإياها.
تقول **التي ترتدي المتقاطع على صدرها** بفضول:
- أهنالك مشكلة ما؟
يرد عليها:
- لا كل ما في الأمر أننا نريد بعض القهوة.
تقول له مبتسمة:
- حسناً ما رأيك بأن أجعل أحداً ينادي على رقم الغرفة ورقم السرير، إذا ما حصل أمر ما؟
- أليس هناك أي إحراج في هذا؟
- كلا الأمر ليس بهذه الأهمية، كما أن الأمر لا يتجاوز كلمة على مكبر الصوت، ولا بد أنكم مرهقون ولا حرج في بعض الراحة، كما أن وجودكم حالياً لا يصلح من الأمر شيئاً.
تقول **ذات الوشاح:**
- معها حق، ولا بد أن هنالك من يحتاج هذه المقاعد أكثر منا نحن الشباب.
تقول **الممرضة:**
- كما أن زوجتك أوصتني ألا تدخل عليها بهذا الوجه المصفر.
وكما الطفل الصغير بدأ يقسم أنه أكل جيداً.
ينهضان عن مقعديهما، تقول له **فاقدة الوشاح:**
- كم هي لطيفة تلك الممرضة.
وتضيف:
- وكم هو حزين وجهها.
تنادي **الممرضة** عليها:
- يا آنسة، وشاحك.
تقول **ذات الوشاح** بابتسامه خجولة:
- يبدو أنني أصبت بالخرف، شكراً لك.
تقول **الممرضة** بهمس:
- لقد كذبت بشأن **(دلال)** هي لم تقل شيئاً، لكنني وجدت الأمر مناسباً، لم أرَ من قبل رجلاً خائفاً إلى هذه الدرجة، ليس من الموت، بل من أمرٍ أكثر رعباً.
- بلى حتى إنني كدت أنسى كيف كان وجهه، وكأنه أصبح رجلاً آخر في السنوات الأربع الأخيرة، أما الآن فيبدو أنه يتوق إلى ما كان عليه، كما قلتِ الرعب من شيء آخر أبشع من الفَناء، لا أحد يستطيع أن يعلم ما الذي يجري داخل عقله الآن.
تضيف قائلة:
- يجب أن أذهب، شكراً لك مجدداً على هذا اللطف.
يقول ذلك الذي **يتوق إلى الإبحار:**
- كم أكره ذلك العالم، وكأننا تماثيل شمعية.
تقول له **ذات الوشاح:**
- أتقصد الممرضة؟

- ليس في سوء، إنما في حزن، وكأنها مرغمة على أن تكون لطيفة، لبقة، جميلة، رغم أن أسفل عينيها قد أصابه السواد.
- لم ألاحظ ذلك.
- ذلك لأننا لا نرى في العادة، هل حدث ونظرنا إلى النادل إذا ما جلب طعامنا، أترين هذه الأضواء، وكأنها تخفي عالماً شديد الظلمة.

تقول:

- أيجب علينا أن ننظر إلى العالم هكذا؟ ربما جميعنا تعساء؟ لكن هل هكذا تغدو الحياة أبداً؟! يستحيل ذلك!
- أنا كنت سعيداً.

تقول ذات الوشاح بغضب:

- كنت؟! لا تتفوه بمثل هذا الكلام.
- يبدو أنكِ أسأت فهمي، أعني بكلمة كنت زمناً يتجاوز تعاسة هذا اليوم الماطر، أشعر أحياناً أنني قد قتلتها.
- ما الذي تقصده؟
- أتذكرين تلك الأيام التي انقطعت فيها أخبارنا منذ شهور عدة؟
- بلى؟
- لقد تركتني **(دلال)** في صباح لا ريبة فيه تخبرني أنها ليست سعيدة، وأنها تريد الانفصال.
- ...
- وضعت يديَّ على أذنيّ، رفضت أن أستمع إلى ما بعد تلك الكلمة، خرجت من المنزل.

يصمت قليلاً ثم يضيف:

- بدأت أقنع نفسي أنه مزاج امرأة متعكر، ربما شعرت بأنها عالقة في روتين قاتل، أن الأمور ستكون بخير عند عودتي إلى المنزل، لكنها كانت قد رحلت.
- لا أصدق هذا، أنت و**(دلال)؟!**

ينظر إلى النافذة، ويبتسم ابتسامه خفيفة:

- كنت أظن أنني لن أسمع في يوم من الأيام موسيقى أحد الجوالين على أرصفة هذه المدينة التعيسة.

يضحك قليلاً، ثم يضيف:

- كنت أرى بعض **(الفيديوهات)** للعازفين الجوالين في أمريكا وبعض أنحاء أوروبا، كان الأمر يذهلني دائماً، تمنيت لو أرى ذلك في يوم من الأيام، وها قد تحقق ذلك.

ينعدم صوت العزف فجأة..

- أو ربما كنت أتخيل فقط.

يصدح مكبر الصوت برقم الغرفة والسرير.

المشهد الخامس عشر: كليشيهات صيادي السبب

كان جالساً في سيارته، يدخن القنب، ويرتشف من ربعية العرق، كانت الليلة الموعودة، الليلة التي سينهي فيها كل شيء، في سكرٍ يقول في قلبه:

- لم عليَّ أن أصحوَ غداً؟ من أجل ماذا؟ ليلة أخرى من الوقود والقنب والعرق الرخيص؟! إنها برمجة هذا العالم البائس، تدفع كل أحد إلى الاستيقاظ في الصباح، تهمس في آذانهم.. استيقظوا، إنه يوم جديد من الهيام والبعثرة، أوجدوا سبباً يبرر هيامكم هذا، ثم يمضي يوم آخر، ليعود الصوت في الصباح التالي.

ينظر في الرشفة الأخيرة في ربعية العرق..

- إن العرق يتملك عقلي كل يوم، يهمس قصة حياتي، يحاول أن يخبرني.. أن يوحي إليَّ بالحل، أن أنتهي مثل آخر رشفة، لكنني أعود كل يوم، أعيد تعبئة نفسي والربعية، بشيء يشبه حال السكر، شيء مثل الأمل الكاذب، إنك تزول كلك، لا يتبقى منك شيء، تزول روحك بزوال جسدك، ما الذي تبتغيه في حياتك الثانية، أن تكون كاهلاً أزلياً وروحك ووعيك عجوز! ليس هذا ما تريده، بل إنك تريد الراحة، إنك تتوق إلى الظلام والعتمة والصمت، إنك تتوق إلى الراحة، لم يكن أملك قط أن تموت من أجل أن تضاجع من هن عذارى أبداً، أو أن تأكل العنب وتشرب الخمر واللبن، أو أن يكون الحرير والريش مضجعاً، يضطجع جسدك ووعيك متعبٌ، ارحل، وتمنى أن تكون هذه هي النهاية، أن تكون الظلمة هي النهاية، هذا هو الأمل الوحيد الحقيقي.

كان يستعد لأن يغادر، ربما ليغادر كل شيء، لكن ومن مدخل المنزل الكبير المجاور، تخرج فتاة ما، تضبط غطاء رأسها، كان الجو بارداً وماطراً، تقبض الفتاة معطفها، وتقاطع رجليها ثم تضمهما معاً. فجأة، بدأت تضرب وجهها بقوة وتصرخ، حتى أنها هرعت مسرعة تفيض بما في معدتها، ليس مرضاً، بل بما يبدو أنه اشمئزاز، ربما أنها تشعر بالمرض من نفسها، كان يراقبها من بعيد، يحاول أن يستجمع قوته ليرحل، ليرحل للمرة الأخيرة، لكن السماء كانت غاضبة ذلك اليوم، ربما كانت غاضبة على سكر الرجل، وخطيئة أخرى في المكان.

يدنو نحوها:

- هاي أنتِ، هل أنتِ بخير؟
- أنا بخير، اذهب أنت.
- اصعدي إلى السيارة، الجو بارد.
- سأنتظر الحافلة، شكراً.
- لن تأتِ أي حافلة في هذه الساعة، لا تخافي.
- ...
- المكان هنا ليس آمناً، هنالك الكثير من الجامحين في هذه الأمكنة.

تلتفت يمنة ويسرة، تهز قدمها، بتردد تقول:

- حسناً، لكن إياك أن تحاول أن تكون ذكياً، أنا لست سهلة.
- أعدك، لا أريد سوى مساعدتك.

تصعد إلى السيارة، يعطيها خرقة تمسح بها بللها، تمسح شعرها، ثم تجفف بقدر الإمكان جسدها، كانت لا تزال ترتجف، يسألها إذا ما كانت لا تزال تشعر بالبرد، تهز رأسها بلطف، يخبرها، أن

تخلع معطفها وقميصها، وترتدي المعطف في الكرسي الخلفي من السيارة، تتردد في البداية، لكنه يخبرها أنه لن يختلس النظر، تخلع معطفها وقميصها بحذر، وقد أوفى هو بوعده ولم يختلس النظر، كان في حالة شديدة من السكر، نظر لها حالما فرغت من تبديل ثيابها:

- ما بالك خائفة؟
- لست خائفة، لكنني متوترة.
- من ماذا؟

تضحك:

- أعني أنك تقود في عرض الشارع، ولم تستقم السيارة منذ أن صعدت إليها.

بخزي:

- لم أشأ أن يراني أحدٌ في هذه الحالة.
- لا عليك، أنا لم أعتقد فيك سوءاً.
- ما الذي أتى بكِ إلى هذا المكان؟
- أشياء كثيرة، وخيارات كثيرة خاطئة، أن تسأل الإنسان عن سبب وجوده في مكان ما، كأنك تسأله عن ماهيته، وما أصبح عليه لينتهي به الأمر هنا.
- أعتقد أن هذا صحيح.
- ما الذي تظنه فيَّ الآن؟
- لست مخولاً لأن أعتقد أي شيء، أعني أنظري إلي.
- يبدو أن كلينا معطوبٌ هذه الليلة.
- أعتقد أننا كلنا معطوبون، لكننا نحاول دائماً أن نخدع أنفسنا.
- ربما أنتَ على حق.

كانت الفتاة قد غفت لبضع دقائق، وكانت لا تزال ترتجف قليلاً، يلتقط الخرقة السميكة، ويغطي رقبتها، كان خجلاً من أن يوقظها، كانت تبدو عليها علامات التعب، لكنه كان مجبراً، حتى يستطيع أن يستدل على المكان الذي تريد أن تنزل فيه، حتى يستطيع هو الآخر أن يفرغ من الأمر الذي عزم على القيام به:

- آنسة؟ أنا آسف على إيقاظك، لكن أين يجب عليَّ أن أذهب الآن؟
- لا عليك، يبدو أنني متعبة قليلاً، لقد اقتربنا، عند التقاطع القادم.

يصلان التقاطع..

- لا أعلم كيف أستطيع أن أشكرك.
- لا عليك، المهم أنك بخير.

تتردد قبل أن تنزل من المركبة، تنزل أخيراً، تشكره مرة أخيرة، وتترك الخرقة على الكرسي، كان يستعد لأن ينطلق من جديد، إلى محطته الأخيرة، لكنها عادت مسرعة:

- دعني أعد لك فنجاناً ساخناً من القهوة أو أي شيء آخر، أعني حتى تستطيع أن تقود في أمان.
- لا بأس، لقد تأخرت.. في الحقيقة لقد تأخرت كثيراً.
- هيا، لا تكن صعباً، دعني أشكرك.
- أنا لستُ نوعك المفضل، كما أنني لا أملك المال.

تخفض هي رأسها في خيبة، يسارع في الحديث فيقول:

- أنا آسف حقاً، لم أقصد.. هذا ليس شأني.
- أنا لست رخيصة، ربما كان المكان سيئاً، لكنني لست رخيصة، كانت هذه وقاحة منك.
- أنا لم أعنِ ما قلت، صدقيني أن المشكلة فيَّ أنا، ليست فيكِ أنتِ، كانت صدفة سعيدة في يوم كريه كهذا، ربما كانت أفضل شيء حصل منذ سنوات، لكن صدقيني إنني لا أصلح لشيء.
- اتفقنا أن كلينا معطوب إلى هذا الحد أو ذاك.
- بل اتفقنا أن العالم كله معطوب، نحن فقط أدركنا ذلك باكراً ... عليَّ أن أذهب حقاً.
- لا بأس اذهب اليوم، لكن عد مجدداً غداً، الساعة السابعة، لكن أريدك هذه المرة أن تكون رصيناً.
- هل حقاً تريدين أن تريننني مجدداً!

تضحك:

- أجل! أراكَ غداً إذاً؟

يبتسم:

- ما اسمك؟
- دلال.

المشهد السادس عشر: خرق الجدار الرابع

كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة في آخر سكرات الموت، ما عاد صدرها يرتفع وينخفض إلا لماماً.
كان من الضروري عليها أن تموت، بل يكاد الأمر أن يكون فرضاً، أن ينعكس البؤس العام لحالي إلى كلمات، ضرورة درامية تعكس العقلية النهلستية والسوداوية للراوي الذي يصف حقيقته وخياله في آن معاً.
وكان لا بد على **ذات الوشاح** أن تهجع في البكاء والنحيب والرثاء، كان لا بد أن تفعل هذا، وكان لا بد على ذلك الذي فُكت حبال مركبه عن القبب الحديدية للمرافئ، فأصبح مركبه يتأرجح مع هيجان الرياح وأمعاء هذا البحر الذي لا يتصف بصفات البحار عادةً، فامتداده يتعدى الأفق مهما بدا ذلك مستحيلاً، وعمقه يعكس تدرجات غير مدركة من السواد والعتمة، فيمسك رأسه ويبكي هو الآخر.
قد وصلوا أخيراً، **العمياوات وأزواجهن** ، الرجال لم يبكوا، فدرجة القرابة لا تستدعي مثل هذا الابتذال الروائي المتوقع، أما العمياوات فبكين بالطبع، فواحدة **أخت (دلال)** والأخرى **أخت الزوج** ، وبذلك يبدو الأمر منطقياً.
لقد ماتت الطفلة إذاً، بلى الطفلة التي لم يتسن لها أن تحظى باسم، رغم أن الزوجين قد تجادلا بخصوص بضعة أسماء، لكن ونظراً لما يمران به الآن، لم يتسن لها أن تحظى باسم، ولعل هذا يخفف وطأة الرثاء، فلو ماتت رغم أن المصطلح ليس سليماً تماماً، لكن لو رحلت وهي لا تزال في أسابيعها الجنينية الأولى لما استدعى الأمر كثيراً من الحزن، فهي لم تتشكل لتصبح معنى يؤثر في حياة الزوجين خاصةً، وأقل تأثيراً على حياة أقربائهما، وقد يكون التأثير أكثر حدة على الزوجة، وهذا طبيعي نظراً للتأثير النفسي، وبذلك، ولكونها لم تكن تحمل اسماً بعد، لم تستطع أن تخلق شعوراً أنانياً لمن حولها، أنه من واجبها المقدس أن تبقى على قيد الحياة حتى لا تؤثر فيهم سلباً، وتأثيرها كان بسيطاً لو نظرنا للأمر من زاوية بعيدة، لكن، وبهذه الحالة بالذات، فقد كانت أحد الأسباب الأساسية لما آلت إليه حالة **(دلال)** ، فيقع عليها لوم وواجب لا تستطيع أن تدركه، كما لا تستطيع أن تدرك معنى الحياة والموت في حالة اللاوعي الخام الذي وجدت فيه.

المشهد السابع عشر: أولئك الذين يشتهون أخواتهم

تُقبل الممرضة اللطيفة، وكان النحيب يملأ رواق الطابق الثالث، النسوة ورجل واحد في حالة رطبة غير مكبوتة، إحداهن ترتدي وشاحاً تحتضنه في غير حرج، بل بعاطفة تغدو مذمومة في غير ذلك الموقف، وأخرى ترتدي الأسود تبكي على ركبتيه، كاشفة عن وجهها وكان صدرها خلاصة أنوثة كاملة، وأخيرة تبكي جالسة، وعيناها فارغتان باهتتان في غير حزن، بل ما يشبه الآلة، أما الرجل فيبكي فقط، يبكي ابنته ويبكي زوجته، أما عن الآخرينِ البعيدينِ، فينظرانِ صوب الممرضة، في لعاب وانتصاب.

تدخل الممرضة غرفة (304)، تنظر في وجه **(دلال)** الساكن، وكان شعرها مبعثراً، ووجهها متعرقاً، تهذب شعرها بلطف، وتجفف عرقها، تضخ في ساعدها محلولاً بروتينياً ونوعاً من المضادات الحيوية، تنظر لها مجدداً، ثم تقول:

- استيقظي إن كنتِ تريدين، سيكون ألمُكِ مهولاً، ستنبذين مرض قلبك، وألم قلبك مهول، إنها الأمومة والخيبة والموت ما سيؤذي قلبك حقاً، لكن لا بأس استيقظي فتغدو الأمور أفضلَ حالاً، يبدو أنك قد وجدت الحب، أو على الأقل هنالك من يحبك، لا بأس إذاً ستبكين وسيكون حزنك عظيماً، لكن الكتف يخفف عنك، كتف ذلك الذي يبكي هو أيضاً وألمه عظيم..

تخرج الممرضة اللطيفة من الغرفة، يقول ذلك **الذي أحب** وعيناه متورمتان..

- كيف هي الآن؟
- أعتقد أنها ستكون بخير.
- حقاً؟
- أعتقد هذا.

تصمت للحظة ثم تقول:

- أنا آسفة حقاً.. بشأن ابنتك.
- أتعلمين ماذا قالت لي مرة.. تلك التي ترقد في السرير الآن، قالت لي إنها أكثر بساطة عما كُنتُ عليه، وقد وعدتها أنني سأكون مثلها، معطوبين سوياً، ربما هي حكمة الرجل الخفي في السماء، واختباراته المستحيلة، ولن أقول مثلاً إنها لم تكن واعية، أن الموت لم يكن موجعاً، أو أنني أتخيلها تختنق تحاول البكاء الأول والصرخة الأولى لها، أو أن حالة قلب **(دلال)**، أو نوعية الرعاية ومستوى المشفى، يغدو المرء وحشاً كارهاً لكل شيء إذا ما فكر هكذا، يكره نفسه.
- ربما كان يجب علينا أن نكون أكثر حذراً، ربما لو جرت العملية بشكل مختلف..
- كما قلت لك وعدتها أنني سأكون أكثر بساطة، الرجل البسيط يكره الله، يلوم الله فقط، واختباراته المقيتة.
- عليَّ أن أذهب، أنا أسفه مجدداً.
- اعتني بـ**(دلال)** من أجلي.
- بالطبع.

تستأذن **الممرضة اللطيفة**، تدخل الغرفة المجاورة، ينظر إليها **المسحور وذو العمامة**، يقول **المسحور:**

- يا إلهي يا رجل، انظر إلى هذا المخلوق؛ ذلك الصدر وتلك الأرداف، والشفتين الورديتين.

يضحك ذو العمامة:
- أستغفر الله، يا رجل إننا في المشفى!
- أي عدل هذا يا رجل، انظر إلى هذه الفاكهة العصارية، وانظر إلى تلك العصا العجوز التي أنام معها.
- ألم تلحظ ما ترتديه حول صدرها، لو أننا نعيش في الماضي فقط، لكانت جارية لنا أو ملك يمين، تنكحها متى شئت.
- ما رأيك، نتحدث معها.
- كيف؟
- ندعي بأننا نطمئن على زوجة صهرك.
يضحك **ذو العمامة** بسخرية:
- بلى أراك تكاد تنهار من القلق.
- لا تدعي بأنك لا تريد هذا.
- حسناً، لكن أنت ستتولى الكلام.
تخرج الممرضة اللطيفة، يُقبل عليها المسحور وذو العمامة:
- عافاك الله أختاه.
- أهلاً، بمَ أستطيع مساعدتكما؟
- نريد أن نطمئن بشأن المريضة في الغرفة رقم (304).
- سيمر الطبيب بعد قليل، يمكنكما أن تسألانه.
تنظر من خلالهما، نزواتهما ونظراتهما الشاذة..
الزوجة العمياء تشيح بنظرها نحو الأرض، بينما تبتسم تلك التي **كشفت عن وجهها**، تجيب **الممرضة اللطيفة** بقدر من اللباقة واللين الضروريين، بعدما فرغا من استجوابهما الشهواني، وفاضت هي عن لطفها الإلزامي، تخبرهما بنبرة مُحبطة عن مشاغلها وضرورة استئذانها، يقول ذو العمامة أخيراً:
- نعتذر أختاه، شكراً لك.
تغادر هي لاعنة مستشيطه محبطة، وينظر كل منهما إلى أردافها وخصرها، بينما يحك كل منهما قضيبه المستعر برفق لئلا يفيض سائليهما، وبما يخفي انتصاب ذكريهما، فلا يصنع ثنايا مريبة ظاهرة فيما يرتديان من السراويل..
تقول في قلبها..
- كم هي مرنة كلمة أختاه تلك، وكم هو مرنٌ ربها، أعتذر لك يا رب، سامحني، قد جعلتنا أولاد الخطيئة، جعلت الأخ يقتل أخاه من أجل أن ينكح أخته! جعلت كل الكلمات مرنة، وجعلت من نفسك عدواً وربهم، اعترفوا بك هم، كذبوا صلبك وجعلوك ناجياً، وأنت لم تعترف بهم، يغدو المرء يشتهي أخته، في سرير عقله ينكحها، حتى إن ملك قوةً.. ينكحها في علن، ضحيت بنفسك من أجل خطايانا، وأنتَ كنتَ صانعها، أعتذر لك يا رب.
(تغادر **الممرضة اللطيفة** المشهد)
تدنو ذات الوشاح وتلك التي كشفت عن وجهها، إلى ذلك الذي أحب، تقول ذات الوشاح:
- هل أنت بخير؟

- لا، لست بخير، لست بخير أبداً.
- عليك أن تكون قوياً من أجل (دلال).
- ليس بعدل أن تقولي هذا، لماذا ماتت الطفلة، لماذا كان يجب عليها أن تموت، كيف أكون قوياً في هذا الألم الهائل، كم أكرهها هذه الطفلة، لماذا كان يجب عليها أن تكون أصلاً، ما المهم بشأن الأطفال، ترحل بهذه البساطة؟! بعد كل هذا الدمار ترحل فقط؟! ما الغاية إذاً؟ لم كل هذا؟!

تقول تلك التي كشفت عن وجهها:
- عليك أن تصبر، لا يجوز هذا الكلام، لعلها حكمة الله.

يصرخ بغضب:
- سحقاً لربك إذاً، ملعون ووحش.

ينظر إليه ذو العمامة:
- استغفر الله، ألا تعلم لماذا يفعل هذا بك، لأنك كافر، بل كافر وحقير.

يضحك ذلك الذي أحب:
- لا أعلم ما الذي يجعل أختي تخافك هكذا، أنت ونزواتك ونظراتك الحقيرة المقرفة، قد سلبك ربك خصيتك، وجعلت أختي عاقراً في أعين كل أحد، حتى أنك صدقت كذبكَ وخداعك.
- أترى كيف أنك تستحق كل ما يجري لك، أنت وزوجتك العاهرة، أي رجل أنت، أي خنزير أنت.

يصرخ ذلك **الذي أحب** بغضب، يهرع نحوه ويطرحه أرضاً، ثم ينهال عليه بالضربات والصفعات ورشقات اللعاب، تدنو أخته، تأخذ بيد أخيها، تتضرع له أن يتوقف، يسرع المسحور فيبعده عنه، يقف ذو العمامة:
- أتضربني أيها الفاجر..

تقترب منه زوجته، أرجوك اهدأ، ليس الآن، ليس هنا، يصفعها ذو العمامة، يغضب الذي أحب مجدداً:
- أتصفعها أمامي أيها الداعر!

يهمس ذو العمامة في أذن زوجته:
- يبدو أن أخاك قد نسي أنني أنا من سترت عاركم، أم أنكِ قد نسيتِ كيف يكون طعم المهبل، أتعتقدين أنهم سيرحمون أخاك من هذا العار، لا مانع لدي في قتلك، سيقولون إن الرجل قد قتل زوجته من أجل شرفه، أتعلمين ما الذي سيحدث له وزوجته إذا ما خرج هذا إلى العلن.

تقول زوجته:
- لقد فهمت.

ثم تقول لأخيها:
- أرجوك توقف، دعنا وشأننا.
- ما بالك! كيف لك أن ترضخي له.
- قلت لك ابتعد عنا.

المشهد الثامن عشر: عندما مات الإنسان

يعود إلى منزله حال غروب الشمس بعد هذا اليوم المتعب ومغامرته الصغيرة تلك، يضع مفاتيح وحشه البترولي الأصفر المتعب على المنضدة أسفل المرآة عند أول الممر.

يصيح:

- مساء الخير.

تخرج زوجته:

- هل جلبت الأغراض؟

يصمت قليلاً، تنظر إليه زوجته:

- لا تقل لي إنك نسيت!
- كلا لم أنسَ.
- ماذا إذاً؟
- لم يعد بحوزتي سوى بضعة قروش.
- ما الذي تقصده بذلك، من أين لنا أن نأكل، أنسيت أن صاحب البيت سيطالب بأجره غداً، وماذا عن أطفالك، من أين لي أن أسكت جوعهم؟؟
- يا امرأة اهدئي قليلاً، لقد صعد معي اليوم رجلٌ وزوجته التي كانت تعاني آلام المخاض و..

تقاطعه:

- وما شأن هذا بشح المال في جيبك يا رجل؟!
- ألن تدعيني أكمل؟
- وها قد عدنا إلى بطولاتك، تكلم وأنهي الأمر.
- يا حبيبتي، كل ما في الأمر أنني اضطُررت إلى أن أسلك طريقاً وعراً قليلاً حتى أوصلهما إلى المشفى، ويبدو أن المركبة قد أصابها عطب في ناقل الحركة.
- أين أذهب بنفسي، وبالطبع قد دفعت ثمن التصليحات كلها من أموالنا.
- بلى.
- عدا عن كون السيارة ليست ملكنا وتتولى تكاليف إصلاحها أيضاً، وفوق هذا يأخذ منك نصف ما تجنيه!
- ادعي الله لعله يرزقنا بأن نشتري ما هو أفضل منها.
- تريدني أن أدعو ربك بأن تبقى سائق مركبة أجرة، يا إلهي ما أعظم طموحك!
- ما الذي تريدينه الآن؟
- أريد منك أن تصبح رجلاً.
- وهل تجديني رجلاً إذا ما تركتهما في عرض الطريق، أكل ما تهتمين بشأنه هو المال؟
- وما هي فائدتك إذا؟
- إن أردت المال، فبإمكانك أن تخرجي وتعملي.
- وماذا تريد مني أن أعمل، لعلي أصبح عاهرة وتربي أنت الأولاد إذاً!
- فلترضي معي إذاً، لعل حالنا يصبح أفضل إذا ما ابتسم أحدنا في وجه الآخر، على الأقل تصبح الحياة مستساغة أكثر.

تضحك بشكل استفزازي:
- أرضى؟ وبمَ أرضى؟ لا أدري من الذي أغشى على بصيرتي وجعلني أتزوج بك.
- بإمكانك أن تتركيني إذاً.
- يا ليت.

يشيح ببصره عنها، قد آلمه كلامها أكثر مما يحتمل هذه المرة..
يقول لها:
- فلتذهبي إذاً.
- ما الذي تعنيه.
- أنت طالق.

تبقى في مكانها في حالة متخشبة، وتشرع باكية، يخرج هو من المنزل، يدير محرك مركبته، يخرج علبة سجائره، يبدأ بالتدخين.
يحدث نفسه..
"ما الذي فعلته أيها الأحمق، لقد فعلت ما كان يجب عليك فعله منذ سنوات، ***لكنها لم تستحق ذلك،*** لكنك لم تعد تحتمل، ***ربما معها حق، ربما أنا لست رجلاً،*** يجدر بك أن تكون فخوراً، ***فخوراً بماذا، بأنني فقير،*** بل بأنك فعلت الصواب، ***الصواب؟ وما هو الصواب؟*** ألا تدع المال أو السلطة يعطبان بوصلتك الأخلاقية، ***وما نفع الأخلاق عندما تكون فقيراً، ربما لهذا كل الفقراء ذوو خلق، لأننا بكل بساطة لم نحصل على فرصة لنثبت أننا لسنا كذلك، أننا عكس ذلك تماماً،*** لو كان هذا الأمر صحيحاً لتركت تلك المرأة تنزف، ***ليس من العدل أن أكون فقيراً،*** وهل تجد في هذه الدنيا أمراً عادلاً؟ ***أعني أنني أملك شهادة في الهندسة، ألا يكفي ذلك لأن أحصل على فرصة عادلة،*** شأنك شأن الآلاف غيرك، ***وهل هذا عدل!*** كما قلت لك، ليس هنالك دنيا عادلة، فقط عد إلى المنزل، ***كلا،*** هي لم تقصد ذلك بتاتاً، أنسيت أنها قاست معك سنوات عمرها الزاهرة هي الأخرى، أنها خرجت عن طوع أهلها من أجلك، ستتركها لمن؟ ***أشعر أنني خذلتها، كانت تعتقد أنني لست كغيري من الرجال، بيد أنها ومنذ اليوم الأول الذي دخلنا فيه ذلك المنزل، كانت علامات الخيبة مرسومة على وجهها، ربما هكذا تجد رجلاً آخر يعوضها سنوات الخيبة تلك، يعوضها عن هذا الرجل الذي لا يصلح لشيء،*** ستترك امرأة مطلقة في هذه المجتمعات لمن؟ ستتركها لمن؟ لمجتمعها أم أهلها أم أطفالها، ستخذلها مجدداً لمن! ***يا إلهي ما الذي اقترفته، ماذا عساي أن أفعل؟*** عد لها، هذا كل ما عليك فعله"..
يومض مؤشر الالتفاف للمركبة، يتدرب على بضعة كلمات يقولها لها، تبدأ مركبته بالالتفاف، يهتز هاتفه بما يدل على رسالة نصية، كانت من زوجته، يرفع الهاتف إلى مستوى ناظريه.
بينما كانت مركبته تلتف، مركبة قاطرة من ذوات الشحن الثقيل، مكابحها بالية، وحمولتها عالية، وأضواء مركبة أخرى عابرة كانت عالية، لم يستطع سائق المركبة القاطرة أن يرى أمامه جيداً..
يصطدم بمركبة أجرة تلتف على التقاطع، تنقلب مركبة الأجرة مرتين ونصف المرة، وقد انثنى حديدها كما الورق، سائق مركبة الأجرة الصفراء مات فوراً.

المشهد التاسع عشر: الفرص والمؤامرة

تدخل **الممرضة اللطيفة** دورة المياه، تجلس على المرحاض مطولاً، تُخرج هاتفها، تختلق لذلك الذي انسل في الصباح عذراً آخرَ.

في نفسها.. "لعل أمراً ما قد حصل".

تدق رقمه مجدداً، لعله يجيب هذه المرة، بقيت محتفظة بذلك العذر حتى آخر ثانية، بيد أنه لم يفعل، بدأت تبكي مجدداً، تمسك بذلك المتقاطع حول رقبتها، تتضرع لربها، تسأله عما يجب عليها أن تفعله، تسأله أن يعينها.

تدلف الممرضة الشبقة دورة المياه، تسمع بكاءها ونحيبها، وقد كانت تكرهها أشد الكره، لأمر لا تذكره الأخرى بتاتاً.

تخرج الممرضة اللطيفة أخيراً من المرحاض، تتظاهر الأخرى بتعديل زينتها، تنظر إليها..

تقول:

- ما بالك تبكين؟
- لا شيء.
- لا بأس ربما أستطيع أن أساعدك، الحديث يريح النفس أحياناً.
- لا شيء، أمر خاص.
- كما تريدين، لكن اعلمي أنك إذا احتجت أمراً ما فأنا هنا من أجلك.
- غريب؟
- وما هو الغريب عزيزتي؟
- لم أعهدك بذلك اللطف! وعادةً ما تكونين لئيمة معي!
- لا على العكس لطالما وجدتك فتاة لطيفة، لكنك منعزلة بعض الشيء، كما أنني لم أكن لئيمة قط، الفتيات الأخريات سفيهات بعض الشيء، ولعلك أخذت انطباعاً خاطئاً عني بسببهن.
- ربما معك حق، لا يجدر بنا أن نحاكم من حولنا بعين واحدة.
- لكننا مع ذلك نفعل.
- بلى، أتفق معك.
- حسناً الآن بما أن الجليد ما بيننا قد بدأ يذوب، ما بالك كنت تبكين؟
- لا شيء حقاً، خلاف بسيط بيني وبين إحدى صديقاتي، وهي ترفض حتى أن تستقبل مكالماتي، أو فرصة للحديث.
- حقاً هذا كل ما في الأمر، يبدو بكاؤك مبالغاً فيه.
- حسناً تعلمين كيف الأمر بيننا نحن الفتيات، نجعل من كل شيء محور الكون، سخف الفتيات.
- حسناً، ربما يمكنني أن أساعدك، ما رأيك لو تحدثت معها؟
- لا.
- ما الأمر؟
- لا، لا شيء، الأمر ليس بذلك الأهمية حقاً.
- متأكدة؟

- أجل، أجل، سيتصوب الأمر قريباً.
- كما تريدين إذاً.

تبدأ الشكوك تدور في عقلها، حيث بدا الأمر لها مريباً..

تقول لها:

- حسناً ما رأيك بفنجانين من القهوة؟ على حسابي بالطبع.
- لم؟
- ألم نصبح صديقتين.
- حسناً، ربما معك حق.
- فلنذهب إذاً.

تشتري كوبين من القهوة، تبدآن بالاحتساء، **الممرضة اللطيفة** لا تنفك تحدق في هاتفها، حتى أنها لم تتفوه بكلمة واحدة، تفكر **الشبقة** بخطة تشبع فضولها، وكانت حنكتها سريعة، وبحركة خاطفة، أزاحت الكوب، وسكبت القهوة على رداء الممرضة اللطيفة..

- أنا آسفة، دعيني أساعدك.

بوجه مُحبط..

- لا، لا عليك، القليل من المياه ستزيل البقع بينما لا تزال حديثة.
- سأذهب معك إذاً.
- لا بأس، سأعود سريعاً.
- كما تريدين.

تنهض عن الكرسي، تترك أغراضها على الطاولة، وتهرع إلى المشرب الحديدي القريب، تستغل **الشبقةُ** الفرصة، تأخذ هاتفها، تسجل آخر بضعة أرقام واردة وصادرة عن هاتفها، وتعيد الهاتف النقال إلى حيث كان.

تعود تلك **التي ترتدي المتقاطع حول رقبتها** ، يصدح صوت مكبر الصوت باسمها..

- عليَّ أن أعود للعمل.
- وأنا أيضاً، سنذهب سوياً.
- حسناً.

المشهد العشرون: باربي

كما كل صباح، يسقي حماره، يضع له القليل من القش وما توافر من الخضار الذابلة، يدع حماره يأكل ويشرب لبعض الوقت، ريثما يوقظ شقيقاته الثلاث الأصغر، يحضر حقائبهن المدرسية، فتأخذ كل واحدة منهن شطيرة وعلبة من عصير البرتقال، عدا أصغرهن التي تحب عصير الفراولة، يساعدهن في ارتداء ملابسهن، يدع أمه تنام لعلها ترتاح من الصحو.

ينقلهن بعربته الخشبية إلى المدرسة باكراً أحياناً، وفي أحيان أخرى على ميعاد طابور الصباح، وذلك بحسب نوعية الأعمال التي سيقوم بها في ذلك اليوم.

ففي يومي الاثنين والخميس ينقلهن باكراً، قبل بزوغ شمس الصباح، وكانت الصغرى تشتكي دائماً في هذه الأيام..

فتقول:

- لا أزال ناعسة.
- يمكنك أن تنامي على العربة إلى حين بلوغنا غايتنا.
- لا أستطيع بسبب اهتزاز العربة.
- أنا آسفٌ إذاً، هل أضرب الحمار؟
- لا، أليس الحمار أخونا.

يضحك..

- بالأحرى هو أبونا.
- هل سيكون لدينا مال عند حلول العيد.
- ربما إذا بعت كل الخضار، أو تيسر لي نقل الكثير من الأحمال، لِمَ تسألين؟

تقرص أختها الكبرى لحمها، تتألم الصغرى..

يقول:

- دعيها تقول ما تريد، ما الذي تريدينه؟
- لا، لا شيء.
- هيا أخبريني وإلا امتنعت عن الحديث معك.
- كنت أريد إحدى لعب الفتيات، تلك التي تصنع لها الملابس وتسرح لها شعرها.
- حسناً إذا، ما رأيك إذا حصلتِ على أربع نجمات من المعلمة قبل حلول العيد، سأشتري لك هذه اللعبة.

تصرخ فرحة:

- أنت أفضل أخ في الدنيا.

يضحك:

- يا لك من مخادعة.

تقبّلهُ.

يصل سوق التجار باكراً، يضع ما وفره من القروش، على بضعة رؤوس من الملفوف، القليل من حبات البطاطا، والباذنجان، ويذهب ليوقف حماره بجانب مجمع لسيارات الأجرة، فمن عادة العوام من الناس، تذكر حاجات المنزل عندما ينفذون من أعمالهم في طريقهم إلى منازلهم.

قد بدأت مطرقة الله تصيب الأرض وقت الظهيرة، وبدأ من يقاربه سناً من الأولاد يخرجون من مدارسهم، وقد كانت مجموعة منهم تسخر من الصبي كلما رأوه؛ تسخر من ملابسه مرة، ومن بشرته المحروقة في أخرى، يضربون حماره، فيصرخ عليهم، أو يمنعهم عنه رجل كبير السن.
باع ما يقارب ثلثي خضاره عندما اصفرّت الشمس الظاهرة من بين الغضب، رأى أنه إذا ما عاد إلى المنزل من طريق يمر بالمدينة، ربما يوقفه بعض المارة فيشترون ما بقي لديه من الخضار، فجعل حماره يبدأ بالمشي، فيصرخ عارضاً لما بقي لديه من البطاطا والباذنجان، وكان قد خبأ رأساً من الملفوف لحماره تحت الغطاء.
عندما وصل المنزل، كان قد وُفق في بيع كل خضاره، وقد جنا مبلغاً جيداً.
يقبل أخواته الصغيرات، يقبل أمه، يحضر قليلاً من الحساء، وكان قد خصص جزءاً من دخله لشراء الخبز المحلى، يبدأ بتغسيل يديّ أخته الصغرى التي تراشق الماء إذا ما فعلت ذلك وحدها، يُغرق الخبز في الحساء، يجلبه إلى سرير والدته، يساعدها على الجلوس، تأكل لقمتين، قبل أن يصيبها الإعياء مجدداً، تخبره أن يأكل هو، يعطيها أدويتها وكوباً من الماء، ويدعها تغفو مجدداً.

المشهد الحادي والعشرون: قبلات الرئيس والعلاقات العامة

مركبات فاخرة من ذوات الدفع الرباعي تقف أمام مدخل المشفى، الصحافيون يهرعون إلى أخذ الصور، يترجل رئيس الدولة، يلوح للجماهير والصحافيين، وكان هذا من ضمن خطة حملته لإعادة الترشح، ونصائح مستشاريه من ذوي الخبرات السياسية، وقائد حملته الانتخابية والخبير في علوم العلاقات العامة، فالمشافي الحكومة تستقبل العديد من جرحى العدوان، من أطفال ونساء وشيوخ وشبان.

يدخل الرئيس لتنهال عليه الصيحات وقبلات الحاجات، فيزور أجنحة وغرف الجرحى والمصابين، وجثث أولئك الذين قضوا نحبهم، فيقبل رؤوس الجرحى، ويحتضن أجساد الموتى.

كانت الأغاني الوطنية تصدح بالمكان، أما عمال النظافة فقد أجهدوا أنفسهم قبل مجيء وفد الرئيس، فلم يعد المكان كما كان، وحملت أجمل الممرضات والموظفات الإداريات باقات الزهور وكان هذا مقابل علاوة لمن رضخت، حتى أن بعض الأقسام خلت من العاملين فيها، فكأن الطابقين الأول والثاني مشفى غير ذلك الذي في الطابقين الثالث والرابع.

قد صرح الرئيس في بيان صحافي بأن أولئك الجرحى سيتلقون أفضل علاج، وسيمكثون في أفضل الغرف، وقد أمر بالشروع بذلك على جناح السرعة، وعلى أكمل وجه.

فنقل الكثيرون ممن يمكثون في الغرف الفردية، وغرف العناية المكثفة إلى غرف المجاميع، وكان من ضمنهم نزلاء الغرفة (304)، وقد واجه الأطباء صخباً شديداً من قبل أهالي هؤلاء المرضى، بيد أن الأطباء قد قالوا إنَّ مرضاهم بحالة جيدة، وإنَّ هذا إجراء روتيني، فسكن غرفة (304) التي كانت مخصصة لنساء المخاض، سكنها أحد المصابين في ركبته، ولم تكن إصابته جديرة بالقلق.

قد بدأ بعض الناس بالسباب على الرئيس ومن بينهم **ذات الوشاح** ، وآخرون بالهتاف، واستمر ذلك حتى صعد إلى إحدى مركبات الدفع الرباعي المصفحة، ورحل الموكب تحت لمعان أضواء وميض كاميرات المصورين، وكلمات الصحافة المناصرة لخطوة الرئيس وموقفه "الإنساني"، وبخاصة أولئك التابعين لمحطات التلفزة المناصرة للدولة.

المشهد الثاني والعشرون: بيدق السماء

يعود إلى منزله بعد انسلاله الجبان، يشعر بالخزي والقرف من نفسه، يصفع وجهه، يصرخ..

- ***جبانٌ ووضيع.***

يرن هاتفه، كانت **الممرضة اللطيفة** ، تعاتب تأخره في جلب شطائر الجبنة الساخنة، يضع هاتفه جانباً، يرن هاتفه مجدداً، تعاتبه في دموعها، وهذا المطر المخيف، يرن هاتفه مجدداً، تخشى عليه هذه المرة، ربما أصابه شيء..

- توقفي أرجوكِ، أنا آسف.

يصفع وجهه مجدداً، يقول في قلبه..

- ***لماذا الآن، لماذا أدركت استحالة أمركما الآن، سافلٌ أنت، سافلٌ وحقير، أين هي وعودك الآن، تتركها بعد النزف، هي الآن محطمة، كنت تخدعها! تخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام، أنك أحببتها فعلاً، مخادعٌ أنت كما كل أحد، تخبرها أن المساجد والكنائس هي ذاتها، أنك تعبد ربها، أن حبكما مشروع، تخبرك هي أنها تحارب كل شيء من أجلك، أن ربها لا يسمح بذلك، لكنها رأت عفو ربك أنت في عينيك، تخبرها أن ربك يحتضنكما، يحميها ويحميك، حتى تَضَرعتْ له مرة، كما لو أنها تضرعت لربها، الرب واحد قلت لها، لم تركتها إذاً، لم تركتها الآن بعد النزف، ثعبانٌ أنت، كما ثعبان كنيستها، ممسوخ فلا أرجل لك.***

يفتح زجاجة من الخمر، يحدث نفسه..

"ستكون بخير، هي ليست مثلنا، النزف لا يعني الكثير عندهم، خطيئة هي وهذا صحيح، لكن الموت ليس حدها، ***وخطيئة إذاً ما ارتكبته وترتكبه، حدك الموت وإن لم تنزف، وخمرٌ تشرب*** ، لا أحد يعلم، لا أحد يحاسب الرماح، فالرماح لا تنزف، ***ربك يحاسب، أم أنه أداة تنكح بها؟!*** بل نحن الضحايا هنا، ضحايا لعبة السماء والآلهة المخمورة، وألعابها المريضة، وقوانينها المقيتة، بيادق نحن، يحركوننا كيفما شاءوا، ورهاناتهم وألعابهم، ***وإن كان المجتمع جباراً كما الإله وربما أقوى، ستُؤذى هي، وتعيش أنت،*** لا أحد يعلم، ستنسى وتنساني، سيراها أحدٌ مثلها، يغفر لها ويحبها، ***هل أحببتها؟*** كثيراً، ***تعتقد أنك تحميها؟*** ربما أحمي نفسيَ فقط، ***أنا مخمور،*** أنا مخمور**".**

ينام من الخمر، بعد ساعات عدة، يرن هاتفه مجدداً، كانت هي مرة أخرى، يضع هاتفه جانباً.

- كل ما أريده الآن أن أنام.

بعد ساعة، يرن هاتفه، وكان لرقم لم يره من قبل، يجيب هذه المرة، كان صوت امرأة..

- مرحباً، لقد أخذت رقم هاتفك من صديقتي، لقد طلبت مني أن أحادثك.
- قولي لها أن تدعني وشأني.
- اهدأ أرجوك، لا بد أن هنالك سوء فهم.
- قولي لها إنه تبين لك، أنني وضيع، أنني كما كل أحد، حقير وجبان.

- ...
- فلتخبريها أنه عليها أن تتوقف عن محاولاتها المثيرة للشفقة، وإلا فسيقوم بإرسال صورها لكل ذويها، ولا تقولي لها إنني آسف.
- شكراً لك.
- لماذا، مهلاً، من أنت؟

كانت قد أغلقت هاتفها، يحاول مهاتفتها مجدداً، لكنها لا تجيب، في قلبه..
"من كانت هذه المرأة، لماذا شكرتني، أيعقل أنها .. لا، لا تكن سخيفاً".
يفكر بتلك **التي تحمل المتقاطع حول رقبتها**، يقول في قلبه..
"ليس من عادتها أن تقول لأحد بماذا تفكر! كانت دائماً تقول لك إنها تفضل حل مشاكلها بنفسها، يستحيل أن تقول لأحد عما حصل، هي ليست حمقاء، ***لا تكن سخيفاً، كل الفتيات هكذا، جميعهن يكشفن أسرارهن لصديقاتهن المقربات،*** لماذا لم أسمعها في يوم تتكلم عن صديقاتها؟ لماذا شكرتني هذه المرأة؟ ***كيف لها إذاً أن تحصل على نمرتك؟*** لا أعلم، لكنني خائف، ***أيعقل أنها تنوي أذيتها،*** الله سيحمينا، سيحميها، ***وماذا لو آذاها الرب الآخر؟*** يجب أن أذهب إليها، ***يجب أن أذهب إليها".***
كان لا يزال مخموراً، يرتدي سرواله، يخرج من باب منزله بتعثر، يستقلُ مركبته، مركبته لا تدور من المرة الأولى، يدير المفتاح مرة أخرى، يضغط على دواسة الوقود، تدور المركبة، لا يرى جيداً، كان لا يزال مخموراً، تزداد سرعته، يناور من بين الزحام بتهور، يقول في قلبه..
"ماذا لو أخبرتْ المرأة أحداً آخر؛ أحداً قد يؤذيها، عليَّ أن أسرع، يا الله، أرجوك، ساعدني!".
يسرع أكثر، يزداد تهوراً، يناور من بين السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس.
في ذلك الاتجاه **رجلٌ** يقود سيارة، يتجادل **وامرأة** بجانبه، يزيد **بيدق السماء** من سرعته أكثر، وكان الصدام..

المشهد الثالث والعشرون: احتضار الله (كون موازٍ)

أحد الآلهة القديمة، التي يتجاوز عددها السبعة آلاف، وقد كان هو أقواها، يحتضر.

كانت أشد الضربات الموجهة إليه ذلك النزف الأخير الذي أصابه إثر **ثورة الساقط عن علو** . في الحقيقة هذا الإله يحتضر قبل ذلك بملايين السنين، لكنها كانت ثورة شبه ماحقة.

قديماً، في الأزمنة الغابرة، وعندما بدأت أعراض المرض بالظهور عليه، كانت كلماته المبعوثة آخر محاولاته لأن يبقى حياً وفاعلاً وقوياً، حيث كانت الصلوات والدعوات والخوف والخشية والحب والآمنة [AAAS1] والتسليم والتضحية ما يبقيه حياً ومتصلاً.

خلال السنوات الألفية اللاحقة لذلك، كانت بشائر نجاح خطته ظاهرة، فازدهرت مملكته، فبنيت قصور الذهب، وامتدت أنهر النعيم، وشيدت أبواب الجحيم المرعبة، وارتكزت التعاليم وتأسست البوصلات، وقد كان قرار توظيفه لعدد من الآلهة الجديدة والمتقاعدة أمراً منطقياً، فيزداد الازدهار وتنخفض ضرائب التوبة والغفران.

بعضهم قد خانه واستغله، كإله الهند، فغدا منافساً له، وبعضهم الآخر كانوا كسولين وانتهازيين، فلم يحدثوا أسطورة واحدة أصلية، بل أخذوا يكررون نفس حكايات إله الشمس، وأقداره الاثني عشر، ومن ذلك بدأ الشك يغزو بعض النفوس، حتى وصل بعضهم إلى الكفر التام، وكانت تلك أولى الضربات.

العديد من تلك الآلهة قد مات وتم نسيانهم، وكان لذلك آثاره الجسيمة على الممالك، وخلال زمن قصير نسبياً بالنسبة لأزليتهم، ساد الأرض بضعة منهم فقط من أصل آلاف، واشتعلت الأرض حروباً دامية طويلة، من أجل الفوز بامتياز الشعب المختار وحصانة الفردوس.

لقد كانت شعوب تلك الآلهة وضيعة للغاية، فكان الاتباع الأعمى وسيلتهم الوحيدة لإعطاء معنى لوجودهم وغاية لخوفهم، وفي ذلك كان يجب أن يكون إيمانهم حاجة خالصة أكيدة ولازمة، لا مجرد رغبة.

استمر الاحتضار لآلاف السنوات اللاحقة، حتى أن ظنون الاستقرار الموهومة قد طمأنت تلك الآلهة، وقد استمر ذلك الاستقرار حتى أحداث **ثورة الساقط عن علو** .

انهارت جدران الممالك الأسطورية القديمة، وهوت قبب القصور، وتفتت أسسها الذهبية الموعودة.

لم يعد أحدٌ ينتظر الشفاء من نص مقروء على قلبه أو رأسه، لم يعد أحد ينتظر تحقيق الدعاوى ونيل موضوعاتها الآنية.

بعد أحداث **ثورة الساقط عن العلو** ، توقف الناس عن الصلوات والدعاء، فلم تعد الآلهة تستجيب لهم، فأخذ بعضهم يسبها ويبكيها ويسألها عن دوافع هجرها لهم، وآخرون يحاربونها، يحتفون بصمتها وهجرها بعد أن كانت سيفاً يضرب أعناقهم في كل تساؤل أو حديثٍ أقاموه.

بعض منهم أخذوا يشكلون فرقاً وجماعات، تحت مسمى (محاكم النور الموضوعي)، تحاكم أولئك الذين لا يزالون يسألون السماوات والبحار والأشياء والأنفس والواعين وتضادهم، وقد اختلفت مناهجهم، منهم من أراد الدعوة لترك التضرع للماورائي، ومنهم من رأى أن الشر يبقى قائماً فيهم ولزام نحر الأعناق، وقد حصلت حروب، مات فيها دعاة الله، وكان الله قد مات فعلاً في ذلك الوقت، ليبرز إلهٌ آخر أكثر شراسة، وسطوع نور (الدين الموضوعي) الجديد.

لقد كانت ولادة عالم جديد شجاع!!

المشهد الرابع والعشرون: الفتلة والجدل

لقد أرقتها ليالي الشهر الماضي، أرق الذنب، وأرق الخطيئة، وأرق التبرير، فتسكن زوجها وسريريهما، ولا يسكنها شيء سوى حاجتها.

تستيقظُ بعد ليلة أرق أخرى، هو يحضر بعض القهوة والخبز المحمص والبيض المقلي، لقد قالت له في لحظة عمياء واعية إنها ليست سعيدة معه، إنها تريد الفصل.

لقد خرج مسرعاً، هارباً، لم تكن تعلم إن كان ما قالته وعياً تاماً، أم ندماً لاحقاً، لكنها باحت بما لا يمكن محوه..

تهاتفه، لا ليس زوجها..

- لقد تم الأمر.
- ممتاز، كان يجب عليك فعل ذلك منذ سنوات.
- أنا خائفة للغاية.
- مِما؟
- مِن الندم.
- وهل أنت نادمة؟
- لا أعلم.
- ...
- لكنه لا يستحق هذه القسوة.
- سيتجاوز الأمر سريعاً، كما أنك تُسدين له خدمة لا يعلم مقدارها.
- لكنه يحبني للغاية.
- وهل تحبينه؟
- أنا لا أكرهه.
- لكنك لا تحبينه!
- ...
- على أي حال، عليك أن تخرجي الآن من عندك.
- إلى أين سأذهب؟
- إليَّ بالطبع.
- ...
- هلمي، ليس هنالك الكثير من الوقت لإضاعته.

لقد بدأت بحزم أمتعتها، وتفريغ أدراج ثيابها، وخلع ثيابها واستبدالها بأخرى.

أوقفت سائق أجرة، وذهبت إلى ذلك العنوان، استقبلها في شقته الفارهة، فأعد لها خدمه الطعام، وحضروا لها الماء الساخن والمناشف شديدة البياض، وقد كانت رفوف المستحم مليئة بأجود ماركات البلسم وملينات الجسد ومزيلات العرق، لقد خرجت من المستحم وكان ثوب الاستحمام الذي ترتديه يفوق سعره راتب ثلاثة شهور لموظف حكومي..

جلست على تلك السفرة الآخذة في الامتداد، والمزينة بالشمعدان، والمكدسة بأنواع فاخرة من الطعام البحري، ولحوم الضأن وشرائح لحم العجول، والعديد العديد من أنواع الخضرة

والمكدسات والمخللات، فيخدم على كل منهما ثلاثة من الخدم، زوج من الذكور وأنثى، فترتب الأنثى الأواني الفضية، ويسكب أحد الذكور المرق، وآخر الشراب.
لقد أكلا من الطعام حد الكفاية، فلا يكلف أحدٌ منهما نفسه آلام الشبع.
قال:

- ما بالك لم تتفوهي بشيء منذ أن حضرت؟
- لا شيء، في الحقيقة ليس هنالك شيء يستدعي البوح.
- هل أزعجك أمر ما هنا؟
- لا، على العكس تماماً، كل شيء يبدو رائعاً.
- ما المشكلة إذاً؟
- ...
- لا بأس، لا أريد أن أعرف الآن، أنت الآن هنا، وهذا هو المهم.

لقد أمضت ثلاثة من الأيام عنده، فلم يحاول استدراجها لأي شيء، أو إزعاجها بأي أمر، وقد كان يخرج صباحاً فلا يعود حتى حلول الليل بين أشغاله، فقد كان يمتلك طابقاً كاملاً لشركة في أحد العمارات بجانب المشفى.
لقد كانت حائرة..
في قلبها..
"لم أنت هنا إذاً! لا أعلم، ***لم تركتيه إذاً؟*** لا أعلم، ***من أجل المال؟*** ربما؟ ***أو من أجل الحب؟*** لكنني لا أحبه هو الآخر، ***لكنه غني،*** بلى هو كذلك، ***وهو خصب،*** أريد أن أكون أماً، ***فلتضاجعيه إذاً،*** سأكون عاهرة، ***بل ستصبحين أماً،*** سأكون خائنة، ***بل ستصبحين أماً،*** لكن ما ذنبه؟! ***إنه عقيم،*** وهل يبرر ذلك خيانتي هذه؟ ***أنت ستقتلين الله، لو كان يعني ذلك أنك ستصبحين أماً،*** لكنني سأقتل ذلك المسكين عوضاً عن ذلك، هو لا يستحق هذا مني، كما أنه يحبني كثيراً، ***لم تركتيه إذاً؟!*** لأنني أريد أن أصبح أماً، ***فلتضاجعي الغني إذاً،*** سأكون أماً لطفل من رجل آخر، ***أفضل من أن لا تكوني أماً أبداً،*** سأضاجعه إذاً، ***فلتضاجعيه،*** متى؟ ***اليوم، الليلة،*** سأصبح أماً، ***ستكونين أماً".***
لقد عاد من عمله، فترتدي له رداء النوم الأحمر القصير النفاذ، فتقترب منه ويتقرب منها، فتقبل رقبته، ويقبل صدرها...

- هل أنت متأكدة؟
- أسكت، قبلني فقط.

وقد تضاجعا حتى سال منيه.
لقد أرقتها تلك الليلة كذلك..
"ما الذي فعلتُه! ***ما كان يجب عليك فعلَه،*** أنا عاهرة، ***بل أَم،*** أنا خائنة، ***بل ضحية،*** ضحية ماذا؟ ***ضحية الحاجة لا الرغبة،*** وهل يبرر ذلك الخطيئة؟ ***بل يبرر حاجتك،*** حاجتي لماذا؟ ***لأن تكوني أماً،*** لكن الأمر ليس أكيداً، ***ستبقين هنا إذاً حتى يصبح الأمر واقعاً، لا مجال للشك فيه،*** لا، يكفي ما اقترفته، ***لا تكوني خرقاء،*** لا يزال بإمكاني أن أعود، فلم يمضي سوى أربعة من الأيام، ***وهل تظنين أنه سيصدقك؟***

سيصدقني أليس كذلك؟ ***وهل سيغفر لك؟*** لقد كانت نزوة، ***وهل ستغفرين لنفسك؟*** ستساعدني على أن أغفر لنفسي، ***من؟*** ابنتي، ***لكن الأمر ليس أكيداً من نكاح ليلة عابرة؟!*** أشعر أنني سأصبح أماً، ***هل أنا متأكدة؟*** هل أنا متأكدة؟".

لقد انسلت في صباح اليوم التالي، انسلال الغفران، وانسلال الآمال، لقد عادت له، لقد كان ينتظرها وقد طالت لحيته..

- كنت متأكداً.
- لقد كنت حمقاء.
- بل أنا الأخرق، كان يجب عليَّ أن أعلم.
- تعلم ماذا؟
- أنك لست سعيدة معي.
- لا أعلم كيف قلت هذا.
- أنا سعيد لأنك قلتيه.
- لماذا؟
- لقد كان اختباراً لنا.
- وهل نجحنا؟
- لقد عدّتِ.
- ما الذي يجب علينا فعله؟
- علينا أن نكون صادقين أكثر.
- بشأن ماذا؟
- بشأن مشاكلنا وصراعاتنا.
- مشاكلنا؟
- مشكلتي.
- مشكلتك؟
- عليَّ أن أتعالج، عليك أن تصبحي أماً.
- كان عليَّ أن أصبر.
- كان علينا أن نصبر.
- سنتعالج إذاً.
- نتعالج؟
- أنسيت؟ مشاكلنا، قلبي.
- بلى، لكنني أخشى من أن أفقدك.
- سأصبح أماً، وستصبح أباً.
- أتريدين ذلك حقاً؟
- أكثر من رغبتي في الحياة، فتلك حاجة.
- لكنني أحتاجك أنت.
- وأنا عليَّ أن أغفر لنفسي.
- ...

- ألن تسألني أين كنت خلال تلك المدة!
- لا يهم.
- لماذا؟
- لأنني أحبك.
- أما زلت تحبني حقاً؟
- وهل تظنينني من أولئك الذين يخال إليهم الوقوع منذ اليوم الأول، بل الأمر تراكمي، وبالتالي فما عندي اليوم لك يفوق الأمس، والغد سيتجاوز اليوم..

تبكي..

- ما بالك؟
- لا أعلم، ربما سعيدة.
- حقاً؟
- أتحتضنني؟

فيحتضنها بشدة، وقد تضاجعا ذلك اليوم، وبقيا في سريرهما طوال اليوم..

(بعد ثلاثة أسابيع)

جُعلَ القيء والغثيان

- أحبك (دلال).

المشهد الخامس والعشرون: خرق الجدار الرابع (الجزء الثاني)

وقد كان أحد الأرقام الصادرة، رقم ذلك ذي الانسلال الجبان، فتحادثه الممرضة الشبقة بحذر:

- مرحباً، لقد أخذت رقم هاتفك من صديقتي، لقد طلبت مني أن أحادثك.
- قولي لها أن تدعني وشأني.
- اهدأ أرجوك، لا بد أن هنالك سوء فهم.
- قولي لها إنه تبين لك، أنني وضيع، أنني كما كل أحد، حقير وجبان.
- ...
- فلتخبريها أنه عليها أن تتوقف عن محاولاتها المثيرة للشفقة، وإلا فسيقوم بإرسال صورها لكل ذويها، ولا تقولي لها أنني أسف.
- شكراً لك
- لماذا، مهلاً، من أنت؟

تنهي المكالمة، بيدق السماء يعاود مهاتفتها، لكنها تغلق هاتفها، في قلبها..

"هذه فرصتي، لقد فرغت من الانتظار، سأنتقم لأبي أخيراً، سأنتقم لأمي، سأنتقم لنفسي، لن يكون الجحيم لي وحدي، فلتأكل النيران كل أحد، لكن، هذا ليس أنا، أنا لم أحمل مثل هذا الكم من الكره من قبل؟! ***أنا هي أنا، ها هو رقم أخيها، مكالمة بسيطة ليتحقق انتقامي أخيراً،*** سبع سنوات مدة طويلة، ربما عليَّ أن أنسى، ***بل سبع سنوات مدة طويلة، عليَّ أن أنتقم".***

كانت تقف حائرة، تحمل بين راحتيها هاتفها، تؤرجح في موازين وعيها وضميرها فكرتي الانتقام والغفران، فتوقعاتك أنت تجاهها ترجح خبث نفسها ولؤمها وألاعيبها، رغم أن لا أمر مكتوب يؤكد ذلك، بل ما قيل لك هو الصفة، فيصبح اسمها **(الممرضة الشبقة)** أي اللعوب، وأنت لم تهتم سوى بما قيل لك، لم أتلاعب بك، بل تلاعبوا بك.

تقول في قلبها:

"ربما هي لا تستحق هذا، ***بل هي لا تستحق الغفران أو الرحمة،*** لا هي لم تكن تعلم، كيف لها أن تعلم؟ ***هذا لا يغفر لها،*** كان مجرد خطأ، ***خطأ كان أم لا، حياتك قد دُمرت وهذه مجرد نتيجة أخرى، ردود الفعل الضرورية والحتمية،*** لكننا الآن بخير، ***بخير بعد أن أصبح الجميع يراك عاهرة حتى أمك،*** كان يجب عليهم أن يروني كذلك وإلا لكنا مِتنا جوعاً، ***لم يكن ليحدث ذلك لو أنها لم تقتله،*** لكن هذه الأمور تحدث دائماً، أن يخطئ المرء، أو تتفوق عليه الاحتمالات ويغلبه العجز أو تقل حيلته، وها نحن الآن في مثل مكانها، ونرى الأمور كما تراها، ***أتتراجعين الآن! أيذهب كل ما عملت لأجله طوال السبع السنوات الماضية هباءً؟!*** ربما أنت على حق، ***ثم إنني لن أقتلها سأؤذيها فقط،*** وماذا لو تطرفوا؟ ***هذا غير مرجح،*** لماذا؟ ***لأنها تحمل على صدرها المتقاطع،*** لكنها هنا؟ ***لا يهم،*** وماذا لو كانت المجتمعات أقوى من الأديان؟ ***سيكون قدرها إذاً،*** أصبح مجرمة! ***بل سيقوم العدل،*** ماذا سأفعل؟ ***مكالمة هاتفية بسيطة،*** سأهاتفه إذاً أليس كذلك؟ ***عليك أن تكوني حذرة، كيف؟*** سأكون عاهرة لمرة أخيرة، ***سأكون عاهرة إذاً، أليس***

هذا هو المتوقع منك؟ هكذا قد كُتبتُ، (**المسحور**) ***ذو الغداء الذي لا يُشبع،*** لم أشبع إذاً؟ ***لا،*** لماذا إذاً؟ ***هكذا كُتبتِ،*** سيقوم بذلك من أجلي؟ ***بل سأدعه يظفر بي أو بجزء مني على الأقل،*** سأدعه يظفر بأكثر من فخدي إذاً، ***مجرد تحسس لما فاض به منيه،*** لعله لن يرضى؟ ***لن يقوى على المضي بأكثر من ذلك، ستحرصين على ألا يتجاوز ذلك،*** سأقوم بذلك إذاً؟ ***مقابل مكالمة بسيطة، نعم،*** سأنتقم إذاً، ***سأنتقم إذاً".***

تتوجه نحو غرفة **(دلال)** الجديدة، تتفحص علاماتها الحيوية، يسألها ذلك **الذي غادر قاربه موانئ عقله نحو العتمة:**

- أين هي الممرضة الأخرى؟
- ستحضر قريباً، لقد طلبت مني أن أغطي عنها لبعض الوقت.
- هل **(دلال)** بحال أفضل إذاً؟
- لا يمكن الجزم بعد.
- لقد طال الأمر كثيراً؟
- سينتهي الأمر قريباً.

في نفسها..

"بطريقة أو بأخرى".

تحضر الممرضة اللطيفة:

- هل هنالك أمر ما؟
- لا على الإطلاق.
- كنت قادمة لأرى كيف أصبحت حالتها.
- لا عليك، تبدين متعبة، لم لا تأخذين قسطاً من الراحة.
- أنا ممتنة لك كثيراً.
- نحن صديقتان الآن، أليس كذلك؟
- أظن هذا.

تشير إلى **زوج التي لا تبصر** ، ينتظرها حتى تبتعد، يقول لزوجته همساً:

- سأذهب إلى الممرضة، لعلها تخبرنا بما تقر به قلوبنا فتطمئن.
- ليس لك بالعادة أن تهتم لأمر أختي، وبالأخص زوجها.
- لا تكوني حمقاء، بالطبع أهتم، فهي أختك في النهاية.
- ...
- تعلمين أنني لا أتدخل في شؤون الناس، لكن هذا لا يعني أنني لا أهتم.
- ...
- سأذهب الآن.
- حسناً.

يذهب إليها، تنتظره هي خلف رواق المصعد..

- ألم تشتق إليَّ؟
- بلى كثيراً.

بإيحاء لعوب:
- حسناً، لا يبدو عليك ذلك.
- لا تقولي هذا، تعلمين أنني لا أحب غيرك.
- قل هذا لزوجتك إذاً، وإلا لما رحلت اليوم وتركتني.
- أنت تعلمين ما حدث، وإلا لما تركتك قط.
- جميعكم تقولون الشيء ذاته.
- هيا لا تغضبي مني الآن، أطلبي أي شيء وسيكون حاضراً أمامك.
- أي شيء؟
- أي شيء.
- حسناً هنالك صديقة لي واقعة في مشكلة وأريد أن أساعدها.
- مشكلة؟
- لقد أحبت شاباً وعلم بذلك أهلها وما حصل بينهما، فرحلت عنهم، وهم يبحثون عنها منذ أيام.
- يريدون أذيتها؟
- لا، بل هم قلقون عليها.
- فلترجع لهم هي إذاً؟
- لا تستطيع، هي مستاءة للغاية، ربما تستطيع أنت أن تتحدث مع أخيها، لقد أخبرتني أنه يحبها كثيراً، ولعلك تحاول تهدئته.
- لا أعلم، أنا قلق قليلاً..
- ألن تفعل ذلك من أجلي؟
- يبدو الأمر مريباً بعض الشيء.
- ألا تريد أن تكمل ما قُطعنا عنه اليوم؟
- ...
- مكالمة بسيطة من أجلي، فلتقل إنكَ فاعل خير.
- ...
- سنحجز المصعد، فلا يقاطعنا أحد.
- حسناً كما تريدين.

فاستجاب لرغبتها، وظفر بما أراد من التلمس حتى ارتعش جسده، وانقبضت عضلات خصره وعانته..

المشهد السادس والعشرون: 2237 وما بعد

يختبئون تحت جسر الـ (هولو)، تطير من فوقهم الدوريات الحوامة، وكانت الأضواء تعم المدينة كلها..

يقول أحدهم:

- سيقتلوننا.

يقول آخر:

- لقد فشلنا.

تقول هي:

- فليقتلونا إذاً، سنموت من أجل الحرية.

يرد الأول:

- أنا لا أريد أن أموت.

يقول الثاني:

- وما نفعنا الآن.

تقول هي:

- الثورة لن تموت، سيذكرنا التاريخ، ستؤرخ أمجادنا.

يقول الأول:

- ألست خائفة؟

تقول:

- بلى كثيراً، لكنها طريق اخترت أن أسلكها، ولا مجال للرجوع الآن، لن يحصلوا على أي شيء منا، سنهاجمهم، سنقتل ما استطعنا منهم، عليهم ألا يحتجزونا أحياء.

يقول الأول والثاني معاً:

- سنموت معاً إذاً.

تقول هي:

- مستعدان؟

يقولان:

- مستعدان.

تقول:

- كان لي الشرف أن أقاتل معكما.

يقولان:

- سنقود الطريق، سنستخدم أسلحة الـ (EMP) هذا كفيل بتعطيل الحوامات والكواشف، وأنت ستستخدمين القوة النارية لتدميرهم تماماً..

تقول:

- ليت هذه التي في رحمي حصلت على فرصتها في الحياة.

يقول الثاني:

- في هذا العالم، في هذا الواقع، الحياة خطيئة، إلى أي عالم ستخرج هذه المسكينة، أي ظلم هذا الذي ستوقعينه عليها!

تقول:

- كنت آمل لو استطعنا تغيير هذا العالم، لعلها تخرج من بين الرماد، إلى عالم جديد، لا يسلبها أحد حقها في أن تكون.

يقول الأول:

- ارحلي إذاً، سنحرص أنا وهو على أن تخرجي من هنا، لن يستطيعوا أن يظفروا بك.

تقول هي:

- لا، لا جدوى من ذلك الآن، لن يهرب أحد، سنموت سوياً.

خرجوا من مخبأهم، يلتزم كل منهم بالخطة، يعطلون الكواشف والحوامات وتتولى هي تدميرها، لقد ضربتهم العيارات النارية، وتطايرت الطلقات من فوق رؤوسهم، أصيبت في كتفها، يحملها الرجل الثاني، ويُقتل الأول..

يقول الثاني:

- وداعاً يا صاحبي، سأراك قريباً.

تقول هي:

- تباً لهذه اليد الملعونة، لقد خانتني مجدداً.

يقول هو:

- يجب أن تحافظي على مضاءة ذهنك الآن، اختبئي هنا
- لا، علينا ألا ندعهم يأسروننا أحياء.
- فلتعيشي لتقاتلي في يوم آخر.
- إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى المجد.
- إلى الموت؟
- بل العدم.
- سنموت معاً إذاً.
- سأخونك هذه المرة أيتها القائدة.
- هذه أبشع أنواع الخيانة، أن أتشبث بالحياة.
- فلتعدميني إذاً، أو فلتدعيني أهرب إلى حريتي.
- ...
- وداعاً.

لقد قُتل خلال ثوانٍ، انفجر بطنه وتناثرت أمعاؤه على صفيحة من المعدن، تمزقت أذرعه حتى فصلت عن جسده، تلطخت المعالم الضوئية بالدم..

لم يجدِ اختباؤها كثيراً، فالكواشف تمتلك مستشعرات عالية الدقة والفعالية، وقد تم أسرها بسهولة.

تم نقلها إلى مبنى العدل والضوء الموضوعي، حيث تعقد الأحكام بلا قاضٍ، بل محاكمات فورية، وقد حكم عليها بالإعدام فوراً، بيد أن أحد المحققين ارتأى أن يحقق معها، لعلها تعطيهم بعض المعلومات حول دوافعهم وغاياتهم..

- رقم (23,1,23,8) أنا الرقم (24,28,22,6)
- فلتسموني ما شئتم.
- ماذا كان هدفكم من الهجوم الإرهابي؟
- لن أتفوه بأي شيء، من الأفضل لك أن تعفي نفسك عن المحاولة.
- وما فائدة صمتك لأي أحد، لن تستطيعي أن تنقذي نفسك، لكن ربما تستطيعين أن تنقذي من في رحمك!

تضع يدها على بطنها..

- من الأفضل لها أن تموت على أن تحيا في هذا العالم.
- حسناً، سنبقيها حية إذاً.
- ما الذي تريدونه مني؟
- أي شيء تعرفينه.
- ما أعرفه أن هذا العالم عليه أن يتحول إلى رماد.
- لماذا؟

تضحك:

- لأننا أسرى.
- سجناء من؟
- سجناء السلطة الجديدة.
- لكننا تحررنا فعلاً، ثورة الساقط عن علو قد حدثت منذ مئتي عام الآن.
- لكنها لم تحررنا سوى من قيد، لتستبدلها بقيود أشد إحكاماً منها.
- نحن نريد أن نحمي الناس.
- بأن تسلبوا حرياتهم!
- بل نحميهم من أنفسهم.
- تروضونهم إذاً!
- ألا ترين ما أنجزه جنسنا منذ الثورة، ألا ترين تقدمنا في الطب والآلة.
- هذا فقط من جانبكم، أما الجانب المظلم فقد تركتموه ليتعفن.
- بل تركناه ليمارس حريته كيفما شاء، أليس هذا ما تقاتلين من أجله؟! أليس هذا عدلاً إذاً؟!
- أتسمي إجرامكم عدلاً؟! أتعلم أعداد الناس التي تقتلونها يومياً؟ أتعلم أعداد الذين يموتون من الجوع أو أبسط الأمراض، مدينة عالقة في التاريخ وأخرى تتجه نحو مستقبل ديستيوبي، هذا إن لم يكن عالمنا فعلاً كذلك.
- لكنك من هذه المدينة التي تكرهين، أتعلمين ما سيحدث لزوجك بسببك؟
- سيرى الحقيقة.
- بل سيموت.
- الأمر ذاته.
- ما الذي كنت تنوينه؟
- الرماد.
- المخزن النووي.

- الخلاص.
- بل إرهاب.
- الأمر ذاته.
- لا أعلم لم تفعلين هذا بنفسك، ما الذي ستجنينه من هذا؟
- فرصة جديدة للعالم.
- كنت ستقومين بتدمير كل شيء.
- هذه خطيئة يستطيع ضميري أن يحتملها.
- ضميرك؟
- سلبتمونا هذا أيضاً.
- ...
- هذه الحياة المسلوبة التي نعيشها يجب عليها أن تنتهي، بلى لقد حُررنا من أمر بسيط، لكننا لا نزال سجناء، وربما سجناء تلك الثورة، ما فائدة تقدمك الطبي هذا إن كنت ستعيش طويلاً بلا معنى، فليحدث الدمار إذاً، إن بقينا أحياء فسنبدأ من القاع.

لقد صمتّ مطولاً، وقد خرقت دفاعاته المنطقية كلها، لقد شعر بالحزن لأول مرة في حياته.

- ربما أستطيع إنقاذك، سأخبرهم أنك مصدر قيم للمعلومات، ما عليك سوى أن تتعاوني معي قليلاً.
- لا لقد حانت ساعتي.
- لا أستطيع استيعاب دوافعك! لا أستطيع استيعاب رغبتك في الموت!
- بل هي حاجة، أترى لم نعد نرى الموت من المسلمات.
- لم لا تدعيني أساعدك؟
- ربما لأن هدفي هنا أن أساعدك.
- تساعدينني؟
- لأن تبصر.
- لم أعد أعلم ما هو حقيقي.
- إذاً فقد انتهى عملي هنا.
- ماذا تقصدين؟
- ألا يموت الأمل.
- الأمل في ماذا؟
- في أن نستيقظ.

أحكموا الأغلال على رسغيها، وانقادت معهم دون مقاومة، فقد كانت تبتسم، تنظر إلى المحقق..

- يدعونني **(دلال).**

المشهد السابع والعشرون: ضحايا أنفسهن

يصدح مكبر الصوت، "لقد انتهى وقت الزيارة، نرجو من الزوار إخلاء الأقسام ليتسنى للطواقم الطبية القيام بعملها، نكرر نرجو من غير المرافقين إخلاء الأقسام، شكراً لكم".

يقول ذلك الذي **يتوق للإبحار:**

- لم لا تنالون قسطاً من الراحة، سأبقى أنا هنا.

تقول ذات الوشاح:

- سأبقى أنا كذلك.

يقول ذلك الذي أحب:

- لا داعي لذلك.

تمازحه:

- هي أختي قبل أن تكون زوجتك.

يبتسم لها:

- حسناً إذاً.

تودع العمياوات ذلك الذي أحب، تسأله أخته إن كان يريد أي شيء، طعام أو سجائر أو ما شابه، يخبرها أن لا داعي لذلك، يرحل الأزواج سريعاً بلا مقدمات كثيرة، تمكث أخته قليلاً، لا تنفك تسأله عن حاجته لأي شيء، يصرخ زوجها ذو العمامة من آخر الرواق..

ينظر ذلك **الذي أحب** ، إلى **ذي العمامة** ، يود لو يضربه، أو ربما يقتله، لكنه عاجز، لا يستطيع حماية أخته..

يقول **ذو العمامة** ..

- سأنتظر في الاستراحة في الأسفل، لا تتأخري، مفهوم؟

ترد عليه:

- سأكون خلفك، فقط لا تغضب.

يخاطبها أخوها:

- ما الذي جرى لك، لم تدعينه يحادثك بهذه الطريقة؟
- ربما هذا قدري.
- لم أعهدك هكذا قط.
- وماذا تريدني أن أفعل إذاً؟
- لا أعلم، أي شيء.
- لا تشغل فكرك بأمري، لديك ما يكفيك الآن من الأحمال.
- لم لا تريدين مني أن أتدخل؟
- لأنها مشكلتي ومشكلتي وحدي.
- إذاً هنالك مشكلة، وأظن أنني أعلم ماهيتها.
- إذا كنت تعرف حقاً ما المشكلة، فأنت تعلم كذلك أنك لا تستطيع أن تفعل أي شيء بشأنها.
- ...
- سأذهب الآن.

تقبل جبينه، تخاطب **ذات الوشاح:**

- إنهما في عُهدتك الآن.
- لا تقلقي.

تستقل **العمياء الأخرى** و**المسحور** مركبتهما الزائفة، وكان سرواله ملطخاً كلطخة سابقة من ظهر هذا اليوم..

يقول:

- لقد تأخرنا على المربية.
- بلى، علينا أن نعطيها إكرامية جيدة بدل الوقت المتأخر.
- هل معك مال؟
- ألم تتقاضى أجرك البارحة!
- تعلمين الالتزامات التي علينا.
- لا بأس إذاً، سأعطيها من مدخراتي.
- كم بحوزتك؟
- لا أعلم تماماً كم المبلغ، لكنني كنت أدّخر كل يوم ما يتبقى من مبلغ خصصته لأغراض البيت أو ما شابه ذلك، خشية أن يمرض الصبي أو أن يحصل طارئ ما.
- لا بأس إذاً، أعطيني كل ما جمعته وأنا سأتصرف.
- وما حاجتك لهذا المال؟
- ولم تسألين، أنسيتي أنني أنا من أعمل.
- بلى أعلم هذا، لكنني قد قلت لك أكثر من مرة عن رغبتي في العمل، وتعلم أنني أمتلك المؤهل والخبرة الكافية لنجاحي بهذا.
- وأصبح أنا زوج المدام؟
- بل سأصبح شريكةً لك.
- دور المرأة أن تعتني بزوجها وبيتها وأولادها.
- فما دورك إذاً؟
- الإعالة، أليس ذلك كافياً!
- ولم لا نكون شركاء؟
- أتريدين مني أن أغسل الصحون!
- إذا كنت سأساعدك في الإعالة فما المانع!
- كل هذا من أجل قليل من المال!
- أنت جعلت من الأسباب المال، لكنك تعلم أن هذا ليس السبب.
- ما الذي تقصدينه؟
- لم تعد أنت الذي كنت أعرفه.
- أنت الملامة على ذلك.
- أنا الملامة على خبو حبك لي؟
- أصبح لدينا الآن طفل، هذا أهم من الكلام المعسول.
- وأنا لا أريد أياً من هذا الهراء، أريد أن أشعر أنني ذات قيمة!

- أنت لست امرأة حتى تكوني شيئاً.
- لست امرأة؟
- أنظري إلى حالك.
- الزمن قد أصابني مثلما أصابك، ألا تهتم بغير ذكرك؟!
- وما الذي تتوقعينه مني؟
- ألا ترى شيئاً آخر فيّ غير جسدي.
- ألا يكفي أنني أحترمك.
- أمام العوام ربما.
- وهذا هو ما يهم.
- أنت ترى غيري أليس كذلك؟
- ...
- واحدة أم أكثر؟
- لا تكوني مجنونة.
- ذكرك يفضحك يا حبيبي.
- هذا مجرد ماء.
- هل أنت سعيد الآن؟
- لابد أنها أختك قد زرعت في رأسك هذه الأوهام.
- ربما لا أتكلم لكنني أستطيع أن أرى.
- فلتعتقدي ما شئتِ إذاً.
- فلنصمت إذاً.

لقد كان الصدام..

المشهد الثامن والعشرون: الفراغ

تستلقي على حنية المقعد، وقد استعملت و**شاحها** كوسادة رأس تحميه من صلابة الفولاذ والبولستر، ينظر لها ذلك **الذي أحب:**

- لم لا تذهبين إلى البيت، تذهبين لبضع ساعات ثم تعودين.
- لا بأس أنا بخير، أحتاج فقط إلى إراحة عينيّ لقليل من الوقت.
- سأحاول إيجاد غطاء لك، لعل أحد الممرضات تساعدنا في ذلك.
- لا داعي لذلك، الجو ليس بهذا السوء.
- ستقرصك البرودة.

كانت قد غفت فعلاً، خلع معطفه، وألقاه على جسدها، وكانوا قد سمحوا له بالدخول إلى **(دلال)** بعد أن تغيرت غرفتها، وكانت لا تزال على حالها، يتفقد ارتفاع وانخفاض صدرها فيطمئن، يهبط إلى كافتيريا المستشفى حتى لا يُقلق راحة ذات الوشاح، وكان عليه هو كذلك أن يرتاح قليلاً، اشترى كوباً من القهوة، وأشعل سيجارته.

كان **الرجل الخمسيني** جالساً كذلك، فرحب كل منهما بالآخر، يسأله الرجل:

- كيف حال زوجتك الآن؟
- لا تزال على حالها.
- وطفلتك؟
- لقد رحلت الآن.
- سحقاً.
- ربما الله ينتقم مني.
- ربما الله ينتقم منا جميعاً.
- لم تخبرني، ما هي الأسباب التي جلبتك إلى هنا؟
- زوجتي.
- هل الأمر خطير؟
- لقد ماتت فعلاً.
- ...
- منذ ساعة فقط.
- أنا آسف حقاً، أنت بخير؟
- لا أشعر بشيء.
- ...
- عندما تزوجتها لم أكن أحبها حقاً، كنت ذكياً للغاية، أطمح بأن أكمل دراستي في ألمانيا، أن أدرس الفيزياء الحديثة، كما ترى فأنا رجل خمسيني الآن من قرية فقيرة، وأهلي فقراء، لم يكن حلم الدراسة في الخارج مستساغاً، وكان طلب أمي الأخير أن ترى أحفاداً لها قبل أن ترحل، يبدو الأمر سخيفاً الآن، لكن في وقتها كانت التوقعات التي ترمى على كاهلك واضحة، أن تستوفي شروط أن تكون إنساناً صالحاً، وربما الأمر لا يزال كذلك.
- ...

- لم أقل لها في يوم من الأيام أنني أحبها، رغم أنها كانت أفضل شيء حصل لي، أما الآن فأنا لا شيء، أولادي قد هجروني، وزوجتي التي أثقلتها بفشلي قد رحلت، وحلم شاب عربي من دول العالم الثالث بدراسة الفيزياء الحديثة كان مجرد خيال، بل استحالة، لم لا أستطيع البكاء، أريد أن أبكي، لم لا أستطيع أن أرثيها، أو أرثي نفسي؟
- أتذكر ما قلته لي، لا أحد يشعر بالحرج في المشافي
- أين سأذهب الآن؟
- إلى بيتك.
- وحدي؟
- لقد ولدت كذلك وستموت كذلك فما الفرق.
- أنني خائف هذه المرة.
- من الموت؟
- بل من الحياة.

نهض عن الكرسي، أطفأ سيجارته، تأرجح حتى وصل إلى مدخل الكافتيريا، توقف قليلاً، نظر إلى الأعلى، همس بشيء بصوت خافت غير مسموع، نظر إلى مدخل المشفى، خطى خطوة واحدة، قبل أن ينهار تماماً، يجتمع الناس حوله، يحضر طبيب بسرعة، يتفقد أنفاسه ونبضه، كان قد فارق الحياة.

المشهد التاسع والعشرون: الجحيم لا يخدع أحداً

لقد عاد أبوه من ترنحه المعتاد، يدخل المنزل، يصرخ عالياً، يطالب بالطعام، يجلب له ما توفر من الحساء والخبز المحلى، يسأله:

- كم جنيت اليوم؟
- كم تريد؟
- أعطني ما بحوزتك فقط.

يعطيه بضعةً من القروش، يقول:

- هذا كل شيء؟!
- سأحتاج قليلاً من المال من أجل الدواء وشراء البضائع غداً.
- قلت لك أعطني كل ما لديك.
- لا.
- ماذا قلت!
- قلت لا.
- أتعصيني أيها العاق!
- فلتذهب إلى الجحيم.

يصفعه بقوة، تصحو أمه:

- أرجوك توقف.

يصرخ عالياً:

- قلت لك أريد كل المال.
- لتشتري الخمر والمخدر؟
- لأفعل ما أشاء.

تقول أمه:

- أعطه ما يريد.
- كلا يا أمي، هذا كل ما بحوزتنا.

يستطرد قائلاً:

- يجب عليَّ أن أشتري الدواء لك، والصغرى عليها أن تكون سعيدة حال حلول العيد.

يقول أبوه:

- تعصيني إذاً!
- خذ ما يكفيك لشراء الخمر وارحل عنا.

يخلع حزامه، ويبدأ بضربه بالطرف الفولاذي الصلب، يتورم وجهه، تنتشر الكدمات على كامل جسده، يرمي حزامه بعيداً ويبدأ في ركله، يكسر بعضاً من أضلاعه، ويحدث نزيفاً داخلياً وكسراً في ذراعه، تحمل الأم سكيناً، تطعن زوجها في ذراعه، يصرخ متألماً، يصفعها صفعة شديدة، لتعود إلى النوم مجدداً، يتركهم في آلامهم وحكمة ربهم من هذا الجحيم الذي لا معنى له، تهرع الصغيرات بعد مغادرة ذلك الوحش، يزحف متألماً نحو أمه، يضع يده على رأسها، يصرخ:

- أمي هل أنت بخير..

يقول للصغرى أن تجلب الطبيب المقيم في الحي المجاور..

- ردي علي يا أمي.
- أنا آسفة..
- على ماذا يا أمي؟
- لأنني أنجبتكم في هذا الوحل.
- لكننا سعداء بأنك أمنا.
- حقاً؟
- وهل تتساءلين يا أمي..
- لماذا لا تكون الحياة عادلة؟
- لأنها الحياة يا أمي.
- وهل الجحيم أكثر عدلاً؟
- أجل.
- لماذا؟
- لأن الجحيم حالة أبدية من البؤس والعذاب، أما الحياة فهي حالة تبدو أبدية من البؤس والعذاب، الفرق الوحيد، أن الحياة تظهر لنا شيئاً من الأمل قبل أن تسحق كل آمالنا وأحلامنا، فيغدو البؤس أقسى مما هو عليه والعذاب أشد، أما الجحيم فلا يمارس هذا التلاعب.
- إذاً فسنذهب إلى الجحيم.
- فلنتمنى أن يكون الظلام يا أمي، الظلام والسكينة.
- ولم لا يكون النعيم؟
- فلتذهبي إذاً إلى النعيم.
- ستكونون بخير؟
- بل سنكون يتامى.
- إذاً بخير؟
- إذا كنت سعيدة بذلك.
- ربما أرتاح؟
- ارقدي إذاً..

وفارقت الحياة، وقد شعر بالقرف من نفسه لأنه شعر بالراحة، ذهب إلى أحد المحال القريبة يجر حزنه وألمه، اتصل بالشرطة، وأبلغ عن وجود ثلاثة فتيات بلا مأوى، ربما يكون دار الأيتام أكثر رحمة لهن من الكهنوت الأسري، حمل السكين الدامي نفسه الذي حملته أمه.

يذهب إلى سوق اللُعب، يشتري إحدى لُعب الفتيات، تلك التي يسرح شعرها وتخيط لها الملابس، يعود إلى المنزل، وكان حماره قد اختفى، فعلم ما حصل له، يعطي اللعبة لأخته الكبرى، يوصيها أن تعطيها للصغرى حالما تعود، وأن تعتني بها وبالأخرى وبنفسها، يعطيها ما بقي لديه من قروش، يخبرها:

- ستصبحن وحيدات، لكنكن ستغدون آمنات، ستصلكن دفعة أخرى من المال خلال ساعات قليلة.

تبكي:

- ستتركنا أنت أيضاً!
- بل سأحرص على أن تبقين آمنات.

يستل السكين الذي حملته أمه آخر مرة، ويتجول في الأمكنة التي يتردد عليها أبوه ... تمر سويعات قبل أن يجده أخيراً، ينسل من خلفه بحذر، ويغرز السكين في جسده ست مرات، مرة عن نفسه، مرة عن حماره، وثلاث مرات عن أخواته، وأخيرة عن أمه، يخطف المال، يحرص على إيصاله للصغيرات، يمشي مجدداً إلى حديقة عامة، يقي نفسه من البرد بغطاء كرتوني، ينام لساعتين أو نحو ذلك، تجده المرأة.

المشهد الثلاثون: الهرب

تستيقظ **ذات الوشاح** بعد قيلولتها القصيرة، ترى معطفه عليها، ولا وجود لأحد على حد بصرها، تزيح المعطف عن جسدها، تلتفت يميناً ويساراً بيد أنه ليس هنا، تقبض معطفه، تشمه وتدنيه إلى صدرها.

تسمع صوت أنين خافت، لقد استيقظت **(دلال)** أخيراً، تدنو نحوها ببطء:

- **(دلال)!**

صوت أنين خافت.

- حمداً لله.

تقبلها، دونما أن تستطيع **(دلال)** رد القبلات

- أين أنا؟
- أنت في المشفى.
- ما الذي حصل لي؟
- ولادة مبكرة، لقد تضاعفت حالتك.
- أين هو؟
- مسكين، لم يأكل شيئاً تقريباً، لعله ذهب للأسفل منذ لحظات، ربما ليشرب قدحاً من القهوة.
- هو بخير؟
- سيكون في أحسن حال عندما يراك.
- كم الساعة؟
- تقارب الفجر.
- أين هي ابنتي؟
- ...
- لم لا تجيبين!
- ...
- صمتك؟
- المهم أنك بخير الآن.

تنتحب، وكان هذا مفاجئاً لذات الوشاح..

- لقد ماتت إذاً.
- أجل!
- أنا قتلتها؟
- بل المبتدع[AAAS2] .
- بل الخطيئة.
- ...
- تعلمين ما أقصد.
- لكنك قلتِ أنها كانت نزوة قديمة لم تُفضِ إلى شيء، منذ سنوات، قبل أن يكون هنالك سبب لتكون خطيئة.

- خطيئة أخرى إذاً، يخفيها ما قد نزف.
- لقد قال شيئاً عن رحيلك، أتقصدين..
- أجل.
- ...
- ما بالك، قولي ما عندك.
- كيف تفعلين هذا به، ماذا تكونين؟
- عاهرة.
- بل أكثر.
- معك حق.
- !
- لطالما اعتقدتِ أنت الأخرى أنني لا أستحق حبه، أنه كان يجب أن تكوني أنت.
- لكنه لم يكن يراني أنا.
- ربما هو أعمى إذاً.
- لأنه أحب؟
- بل لأنه أحبني.
- ...
- تستحقرينني الآن أليس كذلك؟
- كثيراً.
- تتمنين موتي؟
- ...
- بلى أنتِ الآن تكرهينني.
- أنا لا أكرهك.
- لكنني أكره نفسي.
- ...
- ما الذي يدفعني إلى الحياة الآن إن كانت خطيئتي بلا معنى؟
- هو.
- أنا لست كافية.
- هو يراك كافية، ستغفرين لنفسك.
- ربما عليَّ أن أتركه.
- ستقتلينه إذاً؟
- بل سأراه مجدداً.
- ؟
- في واقع أكون فيه أقوى، ولا يكون هو فيه بذلك الضعف.
- كفي عن ذلك.
- لا تكوني مثلي.
- سأرحل.

- فلتذهبي.
- سيموت قلبي.
- سأموت أنا.

هرعت مسرعة، لا تعلم أين تكون وجهتها، نحو هروبها، أم نحو عذابها، تنزل الدرج سريعاً، تتفادى أي لقاء محتمل، تهرع مسرعة..
نحو أنوثتها؟!

المشهد الواحد والثلاثون: مستشفى العراة

يحمل طفله بين راحتَيْ كفيه، يلعن قبلات الرئيس التي قتلت ابنه، يلعن المال الذي لا يملك سداده، يلعن نفسه، يلعن فشله الذي لاحقه، تندبه امرأته، تلومه هو، وهو وحده، يضع ولده أرضاً، يلطخ نفسه بآثار الدم الظاهر من جرح العملية التي فشلت، يلطخ وجهه، يسب ربه، يسأله:

- إلى أين تقودني؟

يصرخ قائلاً:

- في أي جحيم خلقتني؟

يبكي:

- أكرهك، أكرهك.

يلطخ يده مجدداً بالدماء، يلوث وجه زوجته التي تنتحب..

- انظري!

يضحك..

- إنه الفداء!

تصفع يده عنها..

- إنها دماء ولدنا، أتصفعين دماءه؟

تصفع وجهها ورأسها، تقد ثوبها..

- لقد مات ولدي.

يضحك..

- بل هو حي.

يضحك بصوت مدوٍ يصدر صوتاً..

- وييبي.

يستطرد مجدداً ضاحكاً..

- هو طير، أليس كذلك (وييبي).

يصرخ..

- أين هو؟ لِمَ رحل؟ هل انتهى من القبلات؟ أم ربما جف حلقه؟

يستطرف قائلاً..

- ولدي لم يمت دفاعاً عن أي وطن، بل مات من المرض، ألا يقبله أحد؟ لم لا يقبله أحد؟

يصرخ في وجه المتفرجين، يطاردهم بيديه الداميتين، يبتعدون عنه، منهم من يحمل نظرات خوف، وآخرون يشفقون عليه، يصرخ في وجوههم:

- لم لا يقبله أحد؟

يصرخ في وجه فتاة:

- أنت، لم لا تقبليه؟

يبكي..

- لم يتسنى له أن يقبل أي فتاة.

يصمت للحظة ثم يقول:

- ليته جلب لي العار، أليست القبلات هنا عاراً!

ينظر إلى الأعلى، يكلّم ربه:

- لم أخذته مني؟ لماذا لم تدعه يوسمني بالعار؟ لم تدعه يكون عاقاً؟ لم تدعه حياً؟ فقط حياً!

يصرخ عالياً:

- لمَ لا تجيبني؟ لماذا لم تجبني يوماً! لماذا تركتنا هنا لنتعفن!

يصل رجال الأمن، يرفعون الرجل المنهار، لا يقاومهم البتة..

يقول:

- أنا مجنون إذاً! غريب! لماذا أشعر أنني عارٍ تماماً؟ وحقيقيٌ كثيراً؟!

ينظر إلى الرجلين..

- ستأخذانني من هنا إذاً، إلى أين؟ أمكنة المبصرين؟

المشهد الثاني والثلاثون: مُنتهُو المنفعة

يصرخ أحد المارة:

- ابتعدوا عن السيارة.

يصرح شخصٌ آخر:

- سيشتعل الوقود، فليتصل أحدٌ بالإسعاف والإطفائية.

تدريجياً، تستعيد **العمياء** وعيها، لقد تأذى رأسها إلى حد كبير، ببطء بدأ صوت الصفير يتلاشى، تنظر حولها وقد كانت رأساً على عقب، تحاول الوصول إلى حزام الأمان، تحاول أن تفكه..

في طرفة عين، تقع على الزجاج الأمامي للمركبة، وقد صرخت من الألم، فكما تبين أن ساقها قد تأذت أيضاً، تنظر مجدداً حولها، وقد بدأ وهج برتقالي وأحمر بالانتشار، أصوات من الخارج تقول:

- هل هنالك أحد حي؟
- اخرجوا إن كنتم تسمعون، اخرجوا بسرعة؟
- لقد اشتعلت السيارة!
- أسرعوا سوف تنفجر؟
- ابتعدوا، عودوا إلى الخلف، عودوا إلى الخلف حالاً.
- يا إلهي سوف يموتون!
- فليساعدهم أحدكم؟
- انظروا **السائق الآخر** يخرج.

يقول رجلٌ:

- تمهل يا صاحبي، هل أنت بخير.
- يجب أن أذهب، لم يعد هنالك وقت، يجب أن أذهب.
- تمهل يا رجل، لقد كان حادثاً مخيفاً، أنت تنزف، تمهل.

لكن **الرجل** يختفي بسرعة..

تغدو الأصوات أكثر وضوحاً، ويخفت الصفير في رأسها، تبدأ **العمياء** بسماع الصرخات من بين الانتشار الحار، الهلع وصوت الألوان الحادة، وصوتٌ ثالث قريب..

- ساعديني، لا أستطيع التحرك.

كانت قدم **المسحور** محطمة إثر تهشم باب السيارة، كان لا يستطيع التحرك، وفمه بدأ ينفث الدم، يبدو أن الحادث قد مزق بعض أعضائه الداخلية، نزيف في الأمعاء، وجزء من رئته اليسرى قد هشم تماماً، رغم أن حالة جسده الخارجية لا تشير إلى خطورة حالته، يقول **المسحور** ..

- ساعديني.

تحدق به ثواني عدة، ثم تقول:

- الصغير.

يقول هو:

- أجل الصغير، ساعديني، من أجل الصغير.

تقول:

- أحبك.

يقول:

- وأنا أيضاً، أنا آسف، أنا لم أحب أحداً غيرك، لقد كانت مجرد نزوة.

ينسكب الوقود من كل مكان، يصرخ:

- أخرجيني من هنا، تباً لك أخرجيني.
- أنا لم أعد جميلة، هل هي جميلة؟

يبكي:

- أرجوك أخرجيني.
- طفلنا يحبك كثيراً، يتطلعُ لك في كل شيء، سوف يكبر ليصبح مثلك، بلى سيكبر ليصبح مثلك.
- أجل من أجل طفلنا، أنقذيني.
- سيكبر ليصبح مثلك، كلا، كلا لن يفعل.
- ما الذي تقصدينه، لا، أرجوك.
- الجميع يعتقد أننا متنا، لن تعيش، أنت متأذٍّ كثيراً.
- كلا، أنا بخير، مجرد كسر، أنا بخير.
- كلا، لن يصبح مثلك، يجب ألا يصبح مثلك، سوف يحبك، سوف أجعله يراك كأفضل أب في الدنيا، سوف تكون تلك الصورة، يجب عليك أن ترحل، حتى يصبح الصبي صالحاً.

ببطء تبدأ بالزحف، من خلال نافذة باب المركبة، يصرخ:

- كلا، أرجوك، أنا بخير، أريد أن أعيش.

يسيل لعابه ودمه:

- أيتها العاهرة، كلا، عودي، أيتها العاهرة، أرجوكم، كلا، أنقذوني، أخرجوني، أرجوكم.

ببطء، تخرج العمياء من بين الانتشار الحار، يصرخ الجمهور:

- هنالك أحد حي، أسرعوا ساعدوه.

تقف على قدميها، وتمشي..

- أسرعي سوف تنفجر المركبة.

يساعدها قليلٌ من المتفرجين..

- هل أنت بخير؟ أتسمعينني؟
- هل هنالك أحدٌ آخر؟

تمشي ببطء معهم، تنفجر المركبة، تقول:

- يجب أن أذهب، ولدي وحيد في المنزل.
- تمهلي، أنت لست على ما يرام.
- اتركوني، أريد أن أرى ولدي.

وصلت المنزل أخيراً، وكان رأسها ينزف، وساقها مصابة، تتسمر المربية مكانها، تخبرها **العمياء** أن تنتظرها للحظة، تعطيها أجرها وإكرامية عادلة، وتشكرها لصبرها..

تأخذ ملابس زوجها، تمرر يدها على البقعة التي جفت، تبكي..

تدخل غرفة الصغير، تراقبه وهو ينام بسلام، تهز مهده الذي ما عاد يناسبه عمراً بخفة، تضع يدها على وجهه الصغير وتمسحه برفق..
ترتب ألعابه، سيارته البلاستيكية الصغيرة، ودمية دب محشوة، وأقلام التلوين الزاهية، ترتب ملابسه فتطويها بفعالية حتى تأخذ أقل حيز، تعود إلى الجلوس بجانبه..
تقول له:
- هل ستصبح مثله؟ أيجري هو في دمائك؟ لقد رحل هو، وبقيت أنا.
تستطرد قائلة:
- أم ستكبر لتغدو مثلي، أحمقَ؟
تخاطب الصغير:
- عندما أتيت أنت إلى هذا العالم، أصبحت تجسيداً لمغزى وجودنا، تجسيداً لمفهوم الاستمرار، هذا يعني أن وجودنا قد حقق غايته، وبالتالي فقدنا قيمتنا كموجودات، إلا إذا فعلناها مجدداً! لكننا ننجذب إلى أكثر الشركاء نضارة، وفي هذه الحالة، أنا لست منهم بعد الآن، إذاً فقد انتهى دوري أنا وحُقق مغزى وجودي، أن أكون أماً، وأن تأتي أنت، لكن ذلك لم يكن دافع أبيك الوحيد، أترى لقد وجد هو من أجل أن تأتي أنت، ومن أجل أن يناكح ويتناسل، لم تكن خطيئة بل هي طبيعته، هكذا هو مبرمج، وأنا لم أعد شريكة ملائمة، كان يجب عليه أن يموت، أليس كذلك؟!
تنظر إلى ثياب المقتول:
- ستسمع عنه الحكايات المزيفة، التي سأحيكها، سيبدو لك كأعظم رجل في العالم، لكي تغدو محاكاة عن صورته المنسوجة، سأنسجها أنا لك، سوف تُحب، وسوف تشيخ مع من تُحب، ستكون صالحاً لطيفاً طيباً، سوف تتمرد على طبيعتك وبرمجتك.
تنظر إلى طفلها مجدداً:
- ستغدو مثلنا إذاً مجتمعين، ستصبح مسخاً، مسخاً جميلاً، أترى أنا لست ضحية، بل ربما كنت سأفعل مثله تماماً لو كانت الأدوار معكوسة، لكنني الآن أعلم الحقيقة، وعليك أن تجهل الحقيقة أيها الصغير إن أردت أن تغدو صالحاً، عليك أن تكون متوهماً، مسحوراً آخر.
تنهض بسرعة، تلقي بحقيبة كبيرة، تضع ما تحتاج من ملابسها، ما ادّخرت من المال، تحمل رضيعها..
تقول:
"عليك أن تبقى نائماً الآن، سأرحل إذاً؟ ***أجل سأرحل،*** إلى أين؟ ***إلى حيث لا وجود للحقيقة،*** سأصبح منفية، ***سيغدو صالحاً،*** عليَّ أن أبقى هنا، ***سيعرف الحقيقة،*** بل سيكون الطفل آمناً، لقد رحل الآن، ***سيلاحقنا دوماً،*** أمتلك حياة هنا، ***بل قنبلة موقوتة،*** عليَّ أن أصبر، العالم سيصبح بارداً، ***لكن الصغير سيغدو صالحاً،*** ربما سيخذلني؟ ***لا يهم،*** لماذا؟ ***لقد انتهى دوري،*** لكن الحياة لم تنتهِ بعد، ***لهذا عليَّ أن أرحل،*** سأكون منبوذة، **لكن الصغير سيغدو صالحاً،** سأرحل إذاً، ***بلى سأرحل،*** إلى أين؟ **إلى حيث الوهم،** إلى حيث السعادة؟ ***إن كانت وهماً فأجل،*** لم يكن حباً؟ ***بل كان حقيقة،*** سأفتقده؟ ***أجل،*** أتعتقدين؟ ***من أجل أن يغدو الطفل صالحاً، ستفتقدينه، ستحبينه، حتى يُنسج الوهم،*** سأفقد كل شيء إذا ما رحلت، ***لقد***

فقدنا كل شيء فعلاً، ما الداعي إذاً؟ ***ربما الصغير سيتعلم كيف يصبح صالحا".***

تخرج من مدخل المنزل، لا تنظر خلفها، هي لم تعد قط.

المشهد الثالث والثلاثون: مقص

يخلع عمامته بمجرد دخوله إلى المنزل، يأمرها بأن تحضر العشاء، تخلع ملابسها، ترتدي بيجامة سميكة تقي من برودة الليل، تضع له ما توفر من الطعام.

يقول لها:

- ألن تأكلي؟
- ليست لدي رغبة في الأكل.
- ما بالك ترتدين هذه البيجامة؟
- ماذا تقصد!
- فلترتدي ذلك الرداء الأحمر.
- أشعر بالتعب، أريد أن أنام فقط.

يمسك رسغها بقوة.

يقول:

- من واجب الزوجة أن تطيع زوجها إذا ما دعاها لفراشه.

يقول هذا وهو يقضم اللحم، فتسيل عصائره على لحيته..

- ما الفائدة من ذلك، إن كان بلا دافع.
- إسعاد زوجك دافع كافٍ.
- وماذا عن سعادتي أنا!
- سعادتك في سعادتي.
- ألا يمكن أن تلبي لي طلبي هذه المرة فقط، أن تكون سعيداً من أجلي؟
- ما الذي تريدينه؟
- طفل.
- أتجرئين على تحدي حكمة الله أمامي!
- عن أي حكمة تتحدث، أين تكمن حكمته في عنادك وجبروتك؟
- ألا نغير في مشيئته، هذا قدرنا.
- أنت عقيم.

يصفعها بشدة..

- اضربني إن شئت، لم أعد أشعر بشيء.
- إياك أن تهيني رجولتي مرة أخرى.
- وهل ينقص المرض من رجولتك.

يصمت..

- فلتدعني أرحل إذاً، أطلقني لعلي أجد سعادتي، أو ما تبقى منها.
- حتى يفرقنا الموت، لن يلمسك رجل آخر غيري.
- إذاً فلتتركني وشأني، على الأقل دعني أنام.
- ستنامين، لا تقلقي ستنامين، لكن ليس الآن.

يرخي قبضته عنها، حتى ظهرت كدمة خفيفة، تقول له وكانت ملامحها صامتة تماماً..

- حسناً إذاً.

تمشي مبتعدة، يصرخ..

- إلى أين أنت ذاهبة؟
- لن ترغب في وأنا في مثل هذه الهيئة.
- سأنتظرك.

تدخل المستحم، تنظر في المرآة، تخلع ملابسها، تنظر إلى نفسها، تشعر بالغثيان، تهرع سريعاً نحو المرحاض تستفرغ.

تقول في نفسها..

"ليت هذا القيء يحمل معنىً آخر غير الشفقة على الذات".

تغسل وجهها، تنظر إلى نفسها، من خلال انعكاس المرآة، تنظر إلى المقص المعلق، تلتفت نحوه، تحملق به، تدخل المستحم، تفتح صنبور الماء الساخن، تُحدقُ بالمقص، تفرغ من الاستحمام ترتدي القميص الأحمر، لا تزال تنظر إلى المقص، تحمله، تنظر إليه مستقراً بين راحتيها، تخفيه خلفها، تخرج من المستحم.

كان ينتظرها، تقول له:

- أنا جاهزة.
- تبدين مذهلة.

يقبل رقبتها، يجذب شعرها، يقبل صدرها وبطنها، يحملها بخفة، يلقيها على السرير، تضع يدها اليمنى التي تحمل المقص خلف ظهرها..

- ما بالك لا تستمتعين؟
- ها أنا ذا خاضعة لك تماماً، أخبرني بما تريد؟
- حسناً إذاً.
- فلتفعل ما شئت بي.

تضع المقص تحت الوسائد. .

يزيل سروالها الداخلي، يزيل قميصها الأحمر النفاذ، يلعق فرجها، تنظر هي نحو السقيفة، لا تشعر بشيء، يدنو بأوسطه نحو وجهها

يقول لها:

- تعلمين ما أريد:
- حسناً إذاً.

فتفعل لدقيقة أو نحوها، قبل أن يتراجع، يزفر بقوة، ويستريح قليلاً، يستمر بمداعبتها وتقبيلها، تمسح فاهها بيدها اليسرى.

يولج ذكره ببطء في دبرها، فيهتز السرير، وتهتز هي، ويهتز ثدييها، فيهتاج أكثر، يضع يديه على صدرها، يدنو نحوه، يقبله ويمصه.

يضع رأسه على صدرها، تنقبض عضلاته، يئن متقطعاً، يلهث بقوة، يرتجف جسده، يفيض منيه.

ينقلب على ظهره بجانبها، وكان شبه مشلول، يلهث بصعوبة، تنظر للحظة إلى السقف، تصعد على زوجها.

يقول لها ولا يزال يلهث بصعوبة:

- يكفي، يكفي.

تستل المقص من تحت الوسائد..

يرتجف..

- ما الذي تفعلينه؟

ترفع المقص فوق رأسها، وتضربه بقوة! تخترق بطنه، ترفع المقص مجدداً، وتطعنه مجدداً، تظفر بأمعائه، فتقطعها، يصرخ بشده، يلفظ الدماء من فمه، ترفع المقص مجدداً، فتضرب وجنته، يحاول الحراك عاجزاً وهو غارق في دمائه، تضربه مرات عدة حتى أزهقت روحه تماماً.

تمسك قضيبه شبه المنتصب، فتحاول قطعه بنصل المقص غير الممضي، فلا ينقطع من الضربة الأولى، فتضربه مرة أخرى، وثانية وثالثة حتى قُطع، تغرز نصل المقص بقوة مكان القطع، تصنع شقاً عمودياً بصعوبة، بسبب النصل غير الممضي، تصنع الشق حتى كيس الصفن.

تنظر نحو السقف، تلوث نفسها بالدماء، تضع أصابع يدها اليسرى في فرجها، وأصابع يدها اليمنى في مكان الشق، تستمني حتى تأتي، ترتجف، تضحك بشكل هستيري، ثم تبكي، تنهض عنه، تدفعه إلى حافة السرير الدامي وتطرحه أرضاً جثة هامدة، ترفع الغطاء، تلف نفسها به، وتنام.

المشهد الرابع والثلاثون: المجتمعات والأديان!

تنتهي مناوبة **الممرضة اللطيفة** ، تستعد لأن تخرج، تحضر أغراضها وحاجياتها، تتفقد **(دلال)** للمرة الأخيرة، كانت **ذات الوشاح** لا تزال نائمة على حنية المقعد، تعدل موضع المعطف وتُحكمه جيداً.

تودع زميلاتها، تنظر لها الممرضة الأخرى..

تقول في نفسها..

"ما الذي اقترفته؟ ***لقد فات الأوان لفعل أي شيء،*** عليَّ أن أحذرها، ***ما الفائدة من ذلك؟*** هي لا تبدو بذلك السوء الذي تخيلته، **لكنها قتلته!** لكنني لا أعلم ذلك حقاً، ***يجب عليَّ أن أنتقم،*** ربما كان عليَّ أن أغفر، ***فتكون السبع سنوات الماضية بلا معنى!*** لكنني أملك عمراً آخرَ أمامي، ***سيكون موته هباءً!*** لقد مات فعلاً، ***ما الفائدة من تحذيرها الآن!*** المغفرة، **أن أغفر لها؟** بل أن أغفر لنفسي".

تهرع نحوها، تصرخ باسمها، تلتفت لها..

- ما الأمر!
- لقد فعلت أمراً بشعاً.
- ما الذي حصل؟
- ...
- هل أنت بخير؟
- لماذا قتلته؟
- قتلت؟
- لماذا قتلت أبي؟
- ماذا؟
- منذ سبع سنوات، أنسيتي؟
- مهلاً، أنا أذكرك.
- كنت في الثالثة عشرة من عمري.
- بلى أذكر ذلك اليوم جيداً، لقد كان رجلاً لطيفاً جداً.
- لماذا إذاً، لمَ قتلته؟!
- تعتقدين أنه مات بسببي إذاً.
- فقط أخبريني لماذا؟
- لا، لا جدوى من إخبارك.
- ستتركينني أتعذب إذاً!
- بل سأريحك من حقيقة تعلمينها جيداً.
- ماذا تقصدين؟
- مصرة إذاً.
- لعلي أستطيع أن أحيا مجدداً.
- غرفة السجلات، ملف رقم 2237

- ما الذي سأجده فيه؟
- عذابك، وربما راحتك لا أعلم.
- ...
- سأذهب الآن، إن أردتِ قتلي فهذه فرصتك الوحيدة.
- مهلاً.
- ماذا الآن؟
- لقد سرقت هاتفك، عندما سكبت القهوة على ردائك.

تخبرها بصوت هادئ..

- أخبرت من؟
- أخاك.
- حسناً إذاً، كان عليك أن تنتقمي، أليس كذلك؟
- لن يؤذيك، أليس كذلك؟
- ربما.
- أنت تحملين المتقاطع حول صدرك!

تضحك..

- سيحميني الرب إذاً!
- لن يؤذيك أحد، أليس كذلك؟
- لا يهم.
- لا يعقل أن تكون المجتمعات أقوى من الأديان!
- ربما.

تبتسم لها، تتجه نحو المصعد، تنظر إليها الأخرى..

- اغفري لي.
- وأنت أيضاً.

ينزل المصعد، تتجه نحو مدخل المشفى، تمشي نحو مركبات الأجرة، خلف **شجرة الخروب** يقف أخوها، يحمل سكيناً.

تقول له:

- لقد حسمت أمرك إذاً.

ينظر لها وهو يرتجف، تقول له:

- فلتفعل ما جئت لأجله.

يقترب منها، هي لا تتحرك، يمد السكين مرتجفاً، تقبض يده..

- إن أردت أن تفعلها فلا تتردد.

يقرب السكين نحو حنجرتها، تغلق عيناها، فينحرها، الصراخ يعم المكان، رجال الأمن يقبضون على الشاب.

تتجه نحو غرفة السجلات، تبحث عن ملف الحالة رقم (2237)، تنظر إلى خانة أسباب الوفاة، فيبدو الأمر مألوفاً، مضاعفات خلال الجراحة، تنظر إلى خانة الطبيب المسؤول، لقد كان الطبيب ذا الصورة المزيفة، تسمع صوت الصراخ، تتجه مسرعة نحو درج السلم، تتجه نحو المدخل،

كانت الأخرى غارقة في الدماء، تتجه نحوها، تركع على ركبتيها، تضم رأسها الدامي، وتشرع في البكاء.
يصل **بيدق السماء** ، بعد الصِدام الذي مر فيه، وكانت الممرضة اللطيفة منحورة، بعرج ونزف يقترب، يركع على ركبتيه، يحمل السكين الملقي بجانبها، ينظر للشبقة..

- تعلمين ما عليك فعله الآن.
- أجل.

ينحر نفسه..
الدماء تجتمع في بركة، تسقي شجرة الخروب.

المشهد الخامس والثلاثون: الوطن المغتصب!

تخرج من المشفى سريعاً، تلعن نفسها وأختها، تلعن حبها المقموع، وهيئتها غير الأنثوية، تجلس على مقعد بجانب حديقة المدينة، تستلقي على حنية المقعد، تغفو حتى بزوغ الشمس.

تتجه إلى المدينة، كانت الهتافات تعم المكان، ومسيرات المتظاهرين متجهة نحو نقاط التماس مع قوات الاحتلال، تخلع وشاحها..

تقول في نفسها..

- **"أليس هذا ما أؤمن به؟ ما أعيش من أجله؟"**.

تلف **الوشاح** حول رأسها، تخفي وجهها، تنضم إلى جمهور المتظاهرين، تهتف هتافاتهم، وتندب موتاهم.

تستمر المسيرة لكيلومترات عدة، نحو الجدار العازل، حتى صدهم جدارٌ بشري، بيد أنه لم يكن جداراً مشكلاً من قوات أعدائهم، بل حلفاؤهم**!** فكان رجال الأمن الوطني يصدون المستعرين، فيصرخ المتظاهرون هتافات الخيانة والتطبيع، حتى جعل بعض منهم أجسادهم كقذيفة، فيلقون بأنفسهم على رجال الأمن، ويركل آخرون، وآخرون يستخدمون العصي أو الحجارة.

بدأ صبر رجال الأمن يفرغ، وبخاصة بعدما ضعفت دفاعاتهم، وأصيب العديد منهم، لقد بدأوا بإطلاق الأعيرة المطاطية على الجماهير، مستهدفين بطونهم أو أطرافهم، فالعيار المطاطي قد يكون قاتلاً إذا ما أصاب الرأس مثلاً، فيسقط عدد من المتظاهرون جراء إصاباتهم، يتطاير الغاز المسيل للدموع، وتُستخدم خراطيم المياه لفك لحمة التظاهر.

يبدأ الناس بالهرب، فيتعثر بعض منهم إثر التدافع، فيتأذى كثيرٌ منهم، ويقضي القليل منهم نحبه، تقف ذات الوشاح وسط الصدام والهرع، تصرخ..

- إلى أين أنتم ذاهبون؟؟

تستطرد قائلة:

- عودوا أيها الجبناء**!**

تستمر هي وقلة قليلة بمقاومة رجال الأمن، حتى تُضرب على رأسها ويغمى عليها، يحملها عدد من الشبان إلى زقاق قريب، حيث ترقد بضع من الفتيات الغائبات عن الوعي وحولهن مجموعة من الشبان، تستيقظ إحداهن..

تئن..

- ما الذي يحصل؟

يغم الشبان أفواه الفتيات بشريط لاصق، أو بقطعة من القماش، فلا يستطيع أحدٌ سماع صراخهن، تصرخ إحداهن..

- ما الذي ستفعلونه بي؟

يحجر فمها أحد الشبان، فتعضه وتحاول الفرار، بيد أنهم سرعان ما ظفروا بها، فأسكتوها هي الأخرى، كانت الفتيات تركلن، يحاولن الدفاع عن حشمتهن، بيد أن الشبان يفوقونهن عدداً.

تستيقظ **ذات الوشاح** على إثر يد تحاول الوصول تحت قميصها، تصفعه بشدة، فيطرحها الشبان أرضاً بقوة، حتى نزف رأسها إثر شرخ في الجمجمة، فرقدت هادئة.

يزيل عنها ثلاثة من الشبان ملابسها، فتغدو عارية تماماً، فيظفر أحدهم بصدرها، وآخر بفرجها، وأخير بدبرها.
كانت الأصوات المختلفة تعم ذلك الجحيم الشهواني، بعضهن يئن، وأخريات يبكين، والشبان يصرخون ويهللون ويضحكون، بعضهم يتقيأ، وبعضهم الآخر يسيل لعابه، هنالك من يرقد بجانب الحائط بعد أن أستنزف تماماً، والعذريات قد نزفن، أما هي، فقد كانت تضحك، وشعرها مشبع بالدماء، وقد ارتبك أحد الشبان، وآخر اهتاج صارخاً ضاحكاً..

- أحببتِ ذلك، أليس كذلك أيتها العاهرة..؟

لقد كان أقرب ما وصلت إليه من الشعور بكونها **أنثى** ، عندما غرقت بدمائها، واغتصبت ثغراتها.

المشهد السادس والثلاثون والأخير: الساقط عن علو

يمر من جانب الرجل الذي مات ولده، بعد انهيار الرجل الخمسيني، يصعد نحو الغرفة التي تقبع فيها **(دلال)** ، وقد وجد معطفه على المقعد، بلا أثر لذات الوشاح، دخل غرفة **(دلال)** فيراقب صدرها، فكان ساكناً لا يعلو ولا ينخفض، وكانت الدماء تسيل بجانب السرير، فكشف الغطاء عنها، وكانت ملوثة بالبول والغائط والدماء، حيث قطعت شرايين رسغها بحافة السرير البارزة، ونزفت حتى الموت.

يهزها بعنف، يناديها:

- **(دلال)، (دلال).**

بيد أنها لم تجبه، يصرخ طالباً للمساعدة، تهرع الممرضات، تحكم إحدى الممرضات قبضتها على رسغ **(دلال)** ثم تلفها بقطعة من القماش الطبي، وتضعها في قِدر من الماء البارد، تتفقد الأخريات علاماتها الحيوية الساكنة.

إحداهن تبدأ بالنفخ في فمها والضرب على صدرها، ريثما تجلب إحداهن جهاز الرجفان، وقناع الأكسجين.

يتراجع إلى الخلف، ينظر إليها من الباب، يتخبط في مشيته، ينظر إلى الأعلى..

- لكنني فعلت كل شيء أمرتني به، لقد بعتك نفسي، وأخرست عقلي**!!**

يبكي..

- لماذا إذاً؟ لماذا خدعتني؟

يستطرد قائلاً:

- لماذا فعلت هذا يا (دلال)؟

يصمت، يتابع سيره، يتجه نحو السلم، يصعد على (الدرابزين)، وكانت العتمة قد أخفت درك الطابق السفلي، وما فيه من القمامة الطبية، فبدت الهاوية وكأنها بوابة لعالم آخر أكثر عتمة، وأكثر رحمة.

يقف على حافة الدرابزين، يتمايل بدرجة تتغلب فيه الجاذبية على اتّزانه، وكانت الصرخات في الخارج تعلو، إثر مقتل الفتاة التي نُحر عنقها، والشاب الذي نَحر عنقه.

يزداد تأرجحه، فتتغلب الجاذبية عليه..

كان الوقت يمر ببطء شديد وهو يهوي، وكان عقله يعالج مدخلات الزمن بسرعة فائقة، وفي رحلته نحو العتمة، في الطابق الثالث، يرى **الممرضة الشبقة** تطعن **الطبيب ذا الصورة المزيفة** ، يرى كيف يُغرز السكين ببطء في ظهر الطبيب، فينظر إليها ويبتسم.

يمر من الطابق الثاني، فيرى عالماً آخر تماماً، زمناً غابراً، كان فيه مجرد إنسان بدائي، عالقاً في كهف، يصرع الحيوانات الصغيرة ويأكلها، حتى انهار الكهف، ورأى السماء من غير اللوث الومضي.

يمر من الطابق الأول، يرى نفسه مجدداً، في زمن لم يحل بعد، يرى عالماً قد دُمر تماماً، وكانت الحضارة على شكل أنقاض معدنية وإسمنتية، وكانت السماء لا تزال ملوثة، إثر الدمار النووي، بيد أن قليلاً فقط قد نجوا.

يرى نفسه يصعد إلى سطح الأرض بعد أكثر من مئة وخمسين عاماً من حدوث الدمار النووي، ينظر إلى الدمار، والسماء التي تسللت إليها الشمس لأول مرة منذ قرن ونصف، يساعد فتاة صغيرة، تقبض يده بقوة، ويساعد فتاة أخرى، فتحتضنه.

يبكي..

- **(دلال)** أهذه أنت..

كان يبكي فرحاً قبل أن يرتطم بقاع العتمة، فتناثر دماغه إلى قطع صغيرة وقد صرخ عالياً قبل ذلك بلحظة "الله لا يغفر لأحد".

في الغرفة، وبعد بضع صدمات من جهاز الرجفان، المؤشرات الحيوية تستقر في هبوطها وصعودها الحادين.

النهاية

[AAAS1] للمراجعة

[AAAS2] للمراجعة